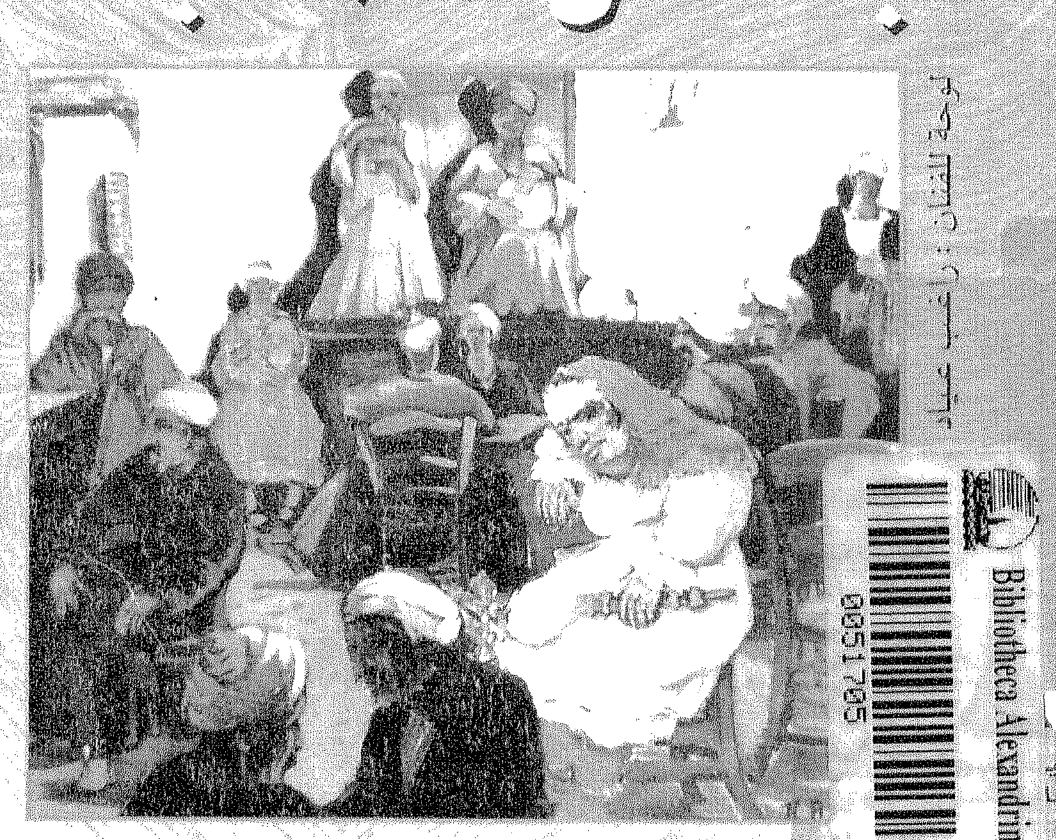
مهرجان القراءة للجميع

مكتبة الأسرة
1999

الأعمال الابداعية

بهاء طاهر

بالأمس حلمت بك





بالأمس حلمت بك



بالأمس حلمت بك

بهاء طاهر



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الإبداعية)

بالأمس حلمت بك

تأليف : بهاء طاهر

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفني:

الفنان: محمود الهندى

المشرف العام:

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ الذى يتلهفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان



بالأمس حلمت بك

(١)

أذهب الى العمل فى الصباح ، وأعود فى المساء للبيت •

يحدث هذا خمسة أيام فى الأسبوع ، يحدث هذا فى مدينة أجنبية فى الشمال • حين أنزل فى الصباح كثيرا ما أجد على محطة الأتوبيس فتاة شقراء فى خدها طابع الحسن ، بمجرد أن ترانى قادما من بعيد تحول وجهها للناحية الأخرى • لا تنظر فى وجهى أبدا مهما طال وقوفنا •

وعندما أعود الى البيت فى المساء أفتح التليفزيون وأغلقه وأفتح الراديو وأغلقه وأتجول قليلا فى الشقة الخالية • أعدل أوضاع الصـــور على الحائط والكتب فى الأرفف ، أغســـل صحونا ، أكلم نفسى فى المرآة قليلا • يتقدم الليل •

وفى معظم الليالى يكلمنى فى التليفون صديقى كمال الذى يسكن فى مدينــة أخرى • يسألنى هل هنــاك أخبار ؟ أقول ليست هنــاك أخبار ، فيشكو أحواله قليلا وأشــكو أحوالى قليلا ، وأخيرا يتنهد ويقول ربما أطلبك غدا •

بعد فترة أنام • غالبا ما يحدث هذا وأنا أقرأ •

فى هذا الأسبوع أهدانى فتحى ، زميلى فى العمل كتابا عن الصوفية • كنا قلة من العرب نعمل فى مؤسسة عربية فى هــذه المدينة ولكن رئيس المؤسسة ومعظم العاملين فيها كانوا من الأجانب • فى هذه الظروف أحب فتحى الصوفية • ولمــا كنت عائدا الى البيت فى المساء بدأت أقرأ الكتاب فى الأتوبيس • قرأت قليلا الى أن قال الكاتب ان الروح تغادر الجسد فى بعض الأحيان وتقوم ببعض الجولات • يحدث ذلك بالليل أثناء النوم وان لم يكن شرطا • تلتقى الروح آحيانا بأرواح شريرة وأحيانا بأرواح طيبة ، يحدث اتصال •

شعرت بالخوف وأغلقت الكتاب •

سألنى جارى فى الأتوبيس ما هذه اللغة ؟ وعرفت أنه غريب مثلى لأن أهل هذا البلد لا يكلمون أحدا • وعندما رددت عليه

قال لغة طريفة . معظم الحروف تكتب تحت السطر . قلت له انني لا أفهم فأمسك الكتاب وفتحه وأشار الى الراء والواو والزاى والى الميم والعين والحاء فى أواخر الكلمات . أشرت بانتصار الى الألف والباء والدال والطاء . قال ولكن عندما تنظر الى الصفحة تلاحظ أن معظم الحروف تحت السطر . سألته عن معنى ذلك فقلب كفيه .

عندما وصلت الى البيت طلبنى كمال فى التليفون مبكرا وسألنى عن الأخبار . قلت له عن الجولات التى تقوم بها الروح وأن معظم الحروف تكتب تحت السطر . سكت قليلا ثم سألنى الجو بارد عندكم ؟ قلت نعم ، فقال عندنا يسقط الثلج . ثم سألنى فجـأة ، كيف تتجول الروح أين تذهب ؟ قلت لا أعرف وفى الغالب لن أقرأ الكتاب . قال هل يمكن اذن أن ترسله لى بالبريد ؟ فوعدت أن أفعل ذلك .

فى الصباح ذهبت الى العمل . كنت سريعا ونشيطا لأقاوم البرد ، ولكن فى محطة الأتوبيس كانت الشقراء هناك وحولت وجههـا . دهشـت من نفسى لأننى أهتم بذلك وقلت ملعون أبوهـا .

كان كتاب الأرواح معى لكى أرسله بالبريد . ولمـا ركبت الأتوبيس قلت لنفسى انه ربما كانت المسألة عادية وربما يجب

أن أقرأ صفحة أو صفحتين لأعرف كيف تتجول الروح ومـاذا تفعل ولكننى قاومت ذلك • وبينما كنت فى الأتوبيس بدأ الثلج فجأة • سقط فى البداية مثل قصاصات عشوائية متطايرة من الورق الأبيض ثم أصبح غزيرا وكثيفا وغلف العـالم خـارج الأتوبيس بستارة متحركة من نمنمة بيضـاء بلا نهاية • برغم ذلك نزلت فى محطة مكتب البريد • وضعت الكتاب تحت معطفى حتى لا يبتل وجريت حتى المكتب ولكن فى خطوات محسوبة لكى لا تنزلق قدمى فى الثلج الناعم • وقبل أن أدخل المكتب توقفت لأنفض الثلج عن شـعرى وعن معطفى • اصـطدم بى شخص من الخلف • التفت ، وكانت هى فتاة المحطـة التقت نظراتنا لثوان وتمتمنا فى نفس الوقت بالاعتـذار ثم تخطتنى واندفعت الى المكتب • وقفت فى طابور قصـير أمام شـباك تسجيل الرسائل الذى لم يفتح بعد • وعندما فتح الشباك رأيتها تجلس خلفه بعد أن خلعت جاكتتها الصـوفية • كان شـعرها الأصفر مقصوصا حتى رقبتها ومفروقا فى الوسط تتدلى منه خصلة مصففة بعرض الجبين ، وكان ذلك وطابع الحسن فى خدها يعطيان وجهها المستدير الجميل شيئا من الطفولة • وجاء دورى فسلمتها الكتاب • وتطلعت لثوان بدهشة الى غلافه بزخرفته المذهبة ثم تجمدت ملامحها مرة أخرى على عادة أهل البلد حين يعملون • وضعت الكتـاب على ميزان وقالت لى عن الثمن • لم تنظر فى وجهى •

كان الثلج ما يزال غزيرا عندما خرجت . فرش الأرصفة بالفعل وكسا أسقف السيارات الملونة التى كانت تسير ببطء بغشاء موحد رقيق . لم تكن معى مظلتى فوقفت أحتمى من الثلج فى مدخل مكتب البريد . بدأت أقلق لأننى تأخرت عن موعد العمل ولكن لم يكن هنـاك ما أستطيع عمله فى هـذا الجو . جاء عبر الطريق رجل يعدو ووقف الى جانبى وهو يلهث وراح ينفض الثلج عن ثيابه ، وحين انتهى وضع يديه فى جيبى معطفه وأخذ يزفر الهواء دخانا من فمه وأنفه . كانت السيارات تمر أمامنا بطيئة ترسم اطاراتها شريطا أسود منقوشا وسـط الثلج فى أسفلت الطريق ، فاندفـع الرجـل ورفع ابهامه لعدة سيارات لكن أحدا لم ينظر اليه . رجع الى المدخل وقد تكوم عليه ثلج جديد ثم نظر الى بشىء من الغضب وقال أنت أجنبى ، أليس كذلك ؟ هززت رأسى فقال عندكم أوغاد بهذا الشكل ؟ لا يتوقفون حتى مع هـذا الثلج ؟ قلت عندنا شمس . سألنى وما الذى جـاء بك الى هنـا ؟ أشرت بأصبعى الى السـماء فضـحك .

فى المكتب قـال لى رئيسى الأجنبى وهـو يلوح بيديه « شوية .. شوية » ، وكان يعتقد أن هذا يعنى بالعربية أننى جئت متأخرا . قلت ان هناك ظروفا تحدث . ولكنه كان سعيدا لأنه تكلم بالعربية ولأننى فهمت . سألنى عن صحتى ، هل هى

جيدة ، فقلت نعم • وعندما قابلت فتحي سألني ان كنت قد قرأت في الكتاب ، قلت لا • هز رأسه في حزن وقال خسارة ، روحك شفافة • ثم دفع سبابته في صدري وقال يمكن أن ينبت بستان في صدرك • قلت له ان صدري مثقل بما فيه الكفاية فقال في هذه التربة ينبت البستان • دفعت سبابتي في صدره وقلت يكفي بستان واحد في المكتب ، وانصرفت عنه •

في المساء عدت الى البيت •

كان الثلج على الرصيفين عاليا يمتد بساطا ناعما ولامعا على جانبي الطريق الأسود المغسول ، وكان يصنع من أغصان الأشجار العارية من الأوراق تعابين بيضاء متعرجة وينقط أوراق الأشجار القليلة التي تحتفظ بخضرتها بزهور منيرة • كان هناك الدفء الذي يعقب الثلج وسكون • في البيت لم أفتح التليفزيون • نظرت من النافذة وكان الثلج في كل مكان ، والسيارات المحاذية للرصيف قببا بلا معالم • كان صمت وحزن فجلست أتأمل حالي •

عندما طلبني كمال في التليفون قلت له ان الثلج قد وصل فقال لي ان هناك ثلجا يغمر روحه • سألته عن السبب فقال انه اكتشف أنه مرت عليه عشر سنين وهو يعمل في بنوك هذه البلدة ، وقد تزوج واحدة من البلد طيبة وجميلة ، وحصل على

الجنسية فيها والناس تحسده لذلك ولكنه تعيس جدا • سألته مرة أخرى عن السبب فقال أليس عمل البنوك نوعا من الربا ؟ هناك شيء قلق فى ضميرى • قلت له ألا يهتم وأننى أرسلت له الكتاب فى البريد واذا كانت روحه شفافة فسينبت له بستان فى صدره • ضحك وقال حرارتى مرتفعة لأننى تعرضت للبرد وأكلت زبدة بالثوم وأظن أن روحى الآن كثيفة • قلت له خذ حبة أسبرين ونم •

فى الصباح لم أذهب الى العمل •

كان ذلك يوم السبت ، لكننى صحوت فى نفس الموعد كأيام العمل وأخذت وأنا فى الفراش أرتب فى ذهنى الأشياء التى سأفعلها • سأشترى خبزا وأكلا يكفينى بقية أيام الأسبوع • سآخذ ثيابى للمغسلة • فى المساء سأذهب الى السينما • قبل ذلك سأكلم كمال فى التليفون لأسأل عن صحته ولأقول له اننى لن أكون فى البيت هذا المساء • وعندما استقر رأيى على ذلك نهضت من الفراش •

نظرت من النافذة وكان الثلج كما هو ، لكنه فقد بريقه • ووسط الرصيف كان هناك ممر موحل منقوش بآثار الأقدام يشق الثلج المتصلب ، وتحت الرصيف كانت أكوام أخرى من ثلج موحل كسحها الكناسون فى الليل من وسط الطريق ،

وقدرت من طريقة لبس المـــارة القليلين ومشيتهم برؤوس محنية وأيديهم فى جيوب معاطفهم أن البرد شديد •

تدثرت جيدا قبل أن أنزل ولكننى كنت أعرف أنه لا علاج لأهم شيء : الأنف والأذنين ، أحيانا أرفع الكوفية حتى أنفى لكننى أشـعر باختنـاق وأشـعر أيضـا بالبرد فى رقبتى • فى الظروف العادية يفيد المشى السريع أو الجرى ، ولكن هـذا مستحيل مع وجود الثلج على الأرصفة • بالرغم من ذلك كان لابد من النزول ، ففوضت أمرى الى الله ومن قبيل الاحتياط لبست جوربين ثقيلين • قررت أن أبدأ بالمغسلة فحملت ثيابى فى كيس ونزلت •

كانت تلك المغسلة محلا للخدمة الذاتية وفيها حوالى عشر غسالات • تضع نقودك وثيابك وصابونك فى الماكينة وتنتظر الى أن تنتهى أو تنصرف ثم تعود فى موعد الانتهاء • وفى المحل موظفة واحدة تراقب سير الأمور وتبيع الصـابون فى أكواب لمن ليس لديه • وعندما دخلت كانت كل الغسـالات مشغولة وهناك سيدة عجوز من أهـل البلد تجلس منتظرة على كرسى والى جوارها كيس ثيابها • جلست ايضا على مقعد خال أنتظر ، ولكن تيارا خبيثا كان يتسرب من الفتحة الرفيعة بين ضلفتى الباب الزجاجى فقمت وأخذت أتجول بين الغسالات • رحت أنظر الى عيونها الزجاجية الدائرية محاولا أن أفهم من طريقة

خض الثياب ودرجة نظافتها أيها أوشكت أن تفرغ • من مكانى سمعت السيدة العجوز تقول بصوت حاد سآخذ أول غسالة تنتهى • لم أنظر اليها وواصلت تجولى بحثا عن الدفء •

دخلت لفحة من الهواء البارد ودخل معها رجلان افريقيان يحمل أحدهما كيسا مملوءا بالثياب والآخر كيسا فارغا • كانا يتكلمان لغتهما ويضحكان • توجها الى احدى الغسالات وكانت قد توقفت عن العمل بالفعل فأدار أحدهما زرارى التجفيف ووقفا ينتظران •

مرة أخرى قالت السيدة العجوز بصوتها الحاد المرتفع سآخذ أول غسالة تنتهى • كانت نحيلة طويلة الرقبة ، لها عينان ملونتان خاملتان ، حدقتاهما دائريتان رماديتان فى جوف كل منهما دائرة كستنائية صغيرة • وكان وجهها المعروق يلمع كأنه مدهون بالزيت •

التفت اليها الأفريقى الذى يحمل الكيس الملآن وقال لها بلهجة رقيقة حضرت هنا مع صديقى من قبلك يا مدام • واتفقت مع الآنسة أن آخذ غسالة عندما ينتهى هو • قال هذا وأشار للفتاة التى كانت تجلس الى منضدة صغيرة فهزت رأسها تؤمن على ما قال •

وقفت السيدة وتحركت نحو الفتــاة وقد اتسعت عيناها واحتقن وجهها وقالت ما معنى هذا ؟ أتنتظر كل هــذا الوقت ثم يأتى من يأخذ دورى ، وزنجى أيضا ؟

احمرت عينــا الافريقى وتقدم منها خطوة وهــو يقول بصوت خفيض :

ــ ماذا تقصدين بذلك ؟

تراجعت خطوة وقالت ــ فى هــذا البــلد نحن نحترم النظام ، لسنا كالبلاد التى ...

قاطعهــا وهو ما يزال يقترب منها ــ لا يعنينى نظــامك ولا بلدك ، ماذا قلت ؟

تراجعت خطوة أخرى وهى تقول ــ ماذا قلت ؟ ألست بالفعل زنجيا ؟

قال وقد أصبح وجهه فى وجهها ــ نعم وأنا فخور بذلك فقولى ماذا تقصدين ؟ قالت لك الآنسة اننى جئت قبلك فما دخل زنجيتى بذلك ؟ قولى ماذا تقصدين .

جلست مكانها فجأة وقالت بصــوت يكاد لا يسمع ــ لا شىء .

فجأة مال الافريقى بجذعه الى الخلف وأخذ يقهقه وهو

يقول ـ اذن فاتت لا ينقصك الأدب وحده ولكن الشجاعة أيضا . الأدب والشجاعة ...

جذبه صديقه من يده وهو ما يزال يقهقه وأخذا مرة أخرى يتكلمان ويضحكان ، فانفجرت العجوز مكلمة لا أحد .

ـ وعلى العموم فأنا لا أحب أن أستعمل هذه الغسالة ؟

قال الافريقى الذى كان يجمع ثيابه من الغسالة ويضعها فى كيسه متظاهرا أنه يبكى ـ يا للأسف ... سأحزن جدا لذلك .

نظرت السيدة للفتاة التى تجلس خلف المنضدة وقالت لها ـ أرأيت ؟

قالت الفتاة وهى تتطلع للسقف ـ لا شأن لى بذلك .

التفتت العجوز تبحث عن شخص آخر تكلمه لكنها لم تجد سواى فأدارت وجهها نحو الباب الزجاجى وهى تتمتم وتهز رأسها ـ ماذا جرى لهذا البلد ؟ ماذا جرى لهذا البلد ؟

بعد أن انتهيت من غسل ثيابى ، خرجت متجها الى المتجر لأشترى أشياء الأسبوع . كان وجهى ملتهبا عندما خرجت من المغسلة ، ومضت مدة قبل أن أشعر بالبرد وأضطر الى ربط الكوفية حول أنفى .

وفى المتجر بينما كنت أجمع علب الصلصة والشاى والسكر

قابلت فتاة مكتب البريد • كانت تدفع أمامها عربة فيها باقة ورد وعلب صابون وخضراوات • ولما التقينا تطلعت الى وعلى فمها ابتسامة مترددة ، فأدرت وجهى •

فى البيت طلبت كمال فى التليفون • سألته عن صحته فقال ان الحرارة هبطت ولكنه مازال يشعر بدوار • سألته ان كان الكتاب قد وصله فقال انه تسلمه الآن وسيعيده الى بعد أن يقرأه • قلت له اننى لا أحتاج الى الكتاب ولا الى أى أرواح طيبة أو شريرة ويكفى أشرار البشر • حكيت له ما دار فى المغسلة ، وكنت منفعلا بعض الشىء لكنه رد بهدوء وقال ما أهمية ذلك ؟ أنا أعيش هنا من سنين وأعرف كيف ينظر أهل البلد الى الأجانب لكننى لا أهتم بذلك أبدا • أعتبر أننى أعيش فى صحراء وأن شقتى خيمة • خارج العمل لا أتعامل مع أحد أبدا ولا أعتبر أن هناك بشرا • هذا هو الحل المثالى معهم وليست هذه هى المشكلة • قلت له اذن ما هى المشكلة ؟ فقال نحن • المشكلة فى داخلنا لكنى لا أعرفها • أبحث عنها طول الوقت لكنى لا أعرفها • هل تعرف فى تفسير الأحلام ؟ قلت أجرب • قال بالأمس حلمت أننى قابلت معاوية بن أبى سفيان وأننى كنت أتوسط عنده للصلح مع سيدنا الحسين فغضب معاوية وقال ضعوه فى السجن مع طه حسين ، لكننى استطعت أن أهرب وركبت تاكسى فوجدت نفسى فى ميدان العتبة • قلت لكمال ان الخلاف كان مع زيد وليس مع معاوية • فقال لى

بشيء من الغضب هو حلم أم حصـــة تاريخ ؟ ماذا تفهم منه ؟
فكرت لكننى لم أفهم شيئا . قلت له ماذا كنت تفعل قبل الحلم؟
قال كنت أتمرن على الآلة الكاتبة الأفرنجيـــة . قلت هل يلزم
هذا لعملك ؟ قال لا ، ولكنه شيء مفيد . قلت له اننى لا أستطيع
أن أفسر الحلم فقال لا يهم ، هل عندك أخبار ؟ قلت لا .

فى المســاء ذهبت الى السينما . كان الفيلم لاترافياتا .
وقفت فى المدخل أنتظر خروج الحفلة وأحتمى بدفء الزحام .
كنت اتفرج على صــور الفيلم ، أرى كيف تصــور المخرج
غادة الكاميليا . وكانت كما أحلم بهـــا نحيلة ، جميلة ، ذات
عينين سوداوين واسعتين . سمعت صوتا من خلفى هل تسمح ؟
التفت وكانت هى مرة أخرى بطابع الحسن فى خدها . كانت
تمسك سيجارة وتقربها من فمها وقالت هــل تسمح أن تشعل
لى السيجارة ، كانت تلبس بلوزة بيضــاء من الصوف الثقيل
عالية الرقبة وبنطلونا وبدا وجهها الخالى من المساحيق متوردا
جدا ومرتبكا . كانت طفلة أكثر من أى وقت وبدا لى غريبا
أنها تمسك سيجارة . ابتسمت لها وأنا أخرج الولاعة فقالت
يبدو أننا نلتقى فى كل مكان . قلت المدينة صغيرة . قالت اسمى
آن ميرى . قلت لها عن اسمى ، ابتسمت وهى تحرك السيجارة
بين أصابعها بسرعة . وقالت قررت أن أواجهـك . قلت لها
بدهشة هل نحن فى حرب ؟ فقالت لا ، لا تهتم . هل ستدخل
الفيــلم ؟ قلت نعم . قــالت تحب لاترافياتا ؟ قلت اعتدت أن

أسمعها فى أوبرا القاهرة . سألت فى القاهرة أوبرا ؟ قلت كان . استمرت تحرك السيجارة بين أصابعها فى عصبية ثم قالت هل لديك مانع أن نتكلم قليلا بعد الفيلم ؟ قلت سأكون هنا .

بعد الفيلم كانت موسيقى فيردى تملأنى وذلك الحزن الرقيق الذى عرفته من أول مرة قرأت فيها غادة الكاميليا والذى يعاودنى كلما شاهدت قصتها . وكانت مع آن مارى احدى صديقاتها عندما خرجت من الفيلم . عرفتنى بها فتطلعت الى بفضول ثم صافحتنى وانصرفت . سرنا فى الطريق البارد الذى كاد يصبح خاليا بعد أن تفرق الخارجون من الفيلم . وكانت غادة الكاميليا لا تزال تملأنى .

قالت تبدو حزينا .

قلت نعم .

فقالت وأنا أيضا . تذكرت بيتا من الشعر يقوله هاملت عن الممثل الذى يبكى على مأساة بطلته ، من تكون له ومن يكون لها حتى يبكى عليها ؟ ثم راحت تهز رأسها وتقول : من تكون غادة الكاميليا لنا ومن نكون لها حتى نحزن عليها كل هذا الحزن ؟

قلت ــ أكثر حقيقية من الناس الحقيقيين .

وغلبنى البرد فسألتها ــ هل تقصدين مكانا محددا ؟

قالت ــ لا .

فجلسنا فى أقرب مقهى .

كنا نجلس متقابلين الى منضـــدة صغيرة وأمامنـــا كوب الشاى الساخن فقلت لها وأنا أبتسم ــ ها أنت تواجهيننى ، فما هى المسألة ؟

ابتسمت هى أيضا وقالت ــ كان الأمر يحتاج الى شيء من الشجاعة هـــذا كل شيء . لم أتعود أن أتكلم الى الأجانب . ثم أضافت بسرعة أقصـــد الأشخاص الذين لا أعرفهم .

ضحكت ضحكة صغيرة وقلت ــ أنا لست خجـــلا لأنى أجنبى .

فانحنت على كوب الشـــاى وقد احمر وجهها وقالت ــ بالطبع . بالطبع . ولمـــاذا تخجل ؟ ثم رفعت رأسها ونظرت الى وازداد وجهها احمرارا وهى تقول ــ أرجوك ألا تسىء فهمى . كان أبى قسا بروتستانتيا وقد علمنا أن نحب المسيح وأن نحب كل الناس فى المسيح . أنا .. أنا لست كالآخرين .

قلت ــ هذا واضح . ولكن ألا تهتمين قليلا لأن هؤلاء

الزبائن يراقبونك وأنت تجلسين مع رجل أجنبى ، ورجل ملون أيضـا ؟

قالت وهى ما تزال تثبت عينيها الزرقاوين فى وجهى :

ــ مطلقا . ثم أضافت بصوت خافت ــ وهذا ما يحيرنى .

ــ ما هــو ؟

ــ شىء يحدث . لا أستطيع آن أصفه . ربما تستطيع أن تساعدنى .

سكت وبدأت أرشف الشاى منتظرا أن تواصل الحديث ولكنها توقفت عن الكلام أيضا وبدأت تشرب الشاى فى صمت وهى تثبت نظرتها فى المنضدة التى تفصل بيننا .

ثم قالت فجأة بصوت خفيض وكأنها تبذل جهدا للكلام ــ أرجوك ان شئت أن تحدثنى عن نفسك . من أنت ؟ من أين ؟ أنا كما ترى من هذا البلد . أعمل فى مكتب البريد . مات أبى وأعيش مع أمى . أحب السينما وأحب الموسـيقى والقراءة . فمن أنت ؟ ماذا تعمل هنا ؟

قلت لها من أنا وماذا أعمل هنا .

قالت ــ وذلك الكتاب الذى أرسلته من عندى بالبريد . ذلك الكتاب ذو الغلاف المزخرف ، ما هو ؟

ـ كتـــاب عن الصوفيـــة • صعب أن أشرح لك • أناس يعتقدون أن القلب هو الذى يفهم لا العقل • يمرنون أرواحهم لكى تصفو قلوبهم •

ـ مثل الرهبـــان ؟

ـ ليس تماما • ولكننى فى الواقع لا استطيع أن أشرح •

لم أقرأ كتبهم ولا أفهمهم كثيرا •

ـ وأنت ما هى أفكارك ؟

ســـكت •

استأنفت هى الكلام وقالت ـ فى وقت من الأوقات تمنيت أن أعتنق الكاثوليكية وأن أصبح راهبة • أحببت أيضا القديس فرانسوا الأسيسى الذى كان يحب الفقراء والمرضى • فى الواقع أنى احتفظ بصورته فى غرفتى رغم أن أمى لا تحب ذلك •

ثم رجعت للخلف فجأة وقالت ـ هذا العالم يمرضنى • لا فائدة ، حاول ناس كثيرون ولكن لا فائدة • نفس الغباء فى كل العصور • نفس الكراهية ونفس الكذب ونفس التعاسة • فكرت أيضا أن أذهب الى افريقيا ، ربما أساعد انسانا واحدا ؛ فكرت ••

توقفت فجأة عن الكلام .

طفرت حبات من العرق فى جبينها ، فمسحتها بيدها ووضعت يدها على عينيها وقالت وهى مغمضة العينين ــ معذرة. أشعر أنى ضايقتك . رأيت وجهك يتغير عندما سألتك ما هى أفكارك فأرجوك أن تسامحنى ، لا أريد أن أتطفل عليك .

قلت ــ لا أهمية لذلك . فى الواقع كانت عندى أفكار آن مارى . قلت لها عن اسمى . ابتسمت وهى تحرك السيجارة بين أصابعها ، بسرعة وقالت قررت أن أواجهك . قلت لها فيما مضى ، لكنى الآن نسيتها . فى بلدى لم يكن أحد يحتاج اليها ولا الى فقررت أن أنساها . نسيت أشياء كثيرة . ولكنك قلت اننى يمكن أن أساعدك ، كيف يمكن أن أساعدك ؟ وقلت لى شيئا عنى يحيرك ، ما هو ؟ رفعت يدها من على عينها وظلت تنظر الى فترة ورموشها تختلج ثم قالت بلهجة عادية . هذا الشىء هو أنى أراك كثيرا جدا . فى كل يوم تقريبا مرة أو مرتين . قلت لها ــ وما الغريب فى ذلك ؟ ما الغريب اذا كنا نسكن فى نفس الحى ونركب نفس الأتوبيس فى نفس الموعد ؟

قالت باللهجة العادية ذاتها ــ لا شىء . غير أننى أراك أيضا عندما لا أراك . أشعر قبل أن أقابلك بأنك موجود وعندما

ارفع عينى أجدك هناك • أحيانا أتخيل هذا فحسب ولا تكون هناك ولكنى أكاد ألمسك •

قلت وأنا أحاول أن ابتسم ــ ربما كنت تحبيننى ؟

فقالت دون أن تبتسم ــ لا •

ثم حولت عينيهـا وقالت ــ سامحنى • فى الواقـع انى أكرهـك •

ثم نظرت الى • كان وجهها محتقنا ، وعيناها محمرتين وقد غادر ملامحها كل جمال •

تطلعت الى عينيها • وكانت بالفعل تكرهنى •

***

(٢)

فى الأسبوع التالى أيضا ذهبت الى العمل وعدت الى البيت •

هبط ثلج جديد واشتد البرد •

ذهبت مرة الى فتحى فى مكتبه وقلت له هذه الحياة تحيرنى فأرجوك أن تعلمنى شيئا • قال كيف أعلمك وأنا لا أعلم ؟ افعل مثلى • دع روحك تتفتح • يوما ستكتشف أنت وسأكتشف أنا خلف هذه الصحراء تلك الأزهار الموعودة التى لا حد لجمالها •

قلت له هذا الكلام يخيفنى ولا يعزينى • أريد شيئا محددا • كيف وصلت أنت الى هذا التوازن والسلام ؟ قال ألغيت ارادتى وسلمتها لصاحب الأمر • ولم يكن ممكنا أن نواصل الحديث •

كلمنى كمال فى التليفون عدة مرات • لم يذكر شيئا عن الكتاب لكنه قال لى ذات مرة انه قرر أن يستقيل من البنك • وفى هذه الفترة كثرت الأحلام عند كمال • كان هناك شىء يتكرر بكثرة فى أحلامه : انه يتعلم عزف الكمان • فى أحد الأحلام ضاع منه القوس الذى يعزف به واضطر أن يستخدم

مسطرة ليواصل العزف • وفى حلم آخر كانت هنـاك لجنة ستمتحنه ولكن زجاجة الدواء الذى يساعد على العزف انكسرت وكانت جميع الصيدليات مغلقة فأراد أن يعتذر للجنة ولكنه لم يجد الحذاء فدفعوه الى المسرح دون حذاء ، وهكذا •

وفى نهاية الأسـبوع دعتنى آن مارى الى بيتها لترد لى دعوة الشاى كما قالت • كنا قد التقينا فى الصباح عدة مرات على محطة الأتوبيس وتبادلنا الحـديث • طلبت منى أن أغفر لها صراحتها فى ذلك اليوم • طلبت أن أنظر للمسألة على أنهـا تعانى من أزمة نفسية لا علاقـة لها بى • والواقع أنها كانت تحب واحدا من مواطنيها ولكنه تركها منذ شهور • سافر الى الخارج بعد أن كانا قد اتفقا على الزواج ومن هناك بعث اليها اعتذارا • قالت انه كان يمكن ألا يعدها بالزواج وأنها كانت ستحبه وتبقى معه برغم ذلك • ولكن أن يعد وعدا لم يرغمـه عليه أحد ثم ينكثه فهذا فى الواقع هو ما يمرضها • وهى تكاد تكون سعيدة لأنها تخلصت من شخص بهذه الأخلاق فى الوقت المناسب • ثم تكلمت عنى • قالت انها تحاول أن تنظر للمسألة بمنتهى الموضـوعية • كأنها لا تتكلم عنى أو عنها ولكن عن بشر آخرين ، وترجو أن أسامحها • هل تكرهنى لأنها رأتنى فى هـذه الظروف ؟ هـل أذكرها بذلك الشخص الآخر الذى أصبحت الآن تكرهه ؟ ولمـاذا ؟ هـل لأن فى شـيئا يشبهه ؟

ما هو ؟ هل لأنه سافر للخــارج مثلا ؟ هى تعرف أن المسألة معقدة جدا وستفهم تماما اذا رفضت أن أساعدها بل وستعتذر لى وتشكرنى لأننى وافقت أن أستمع اليها • أما ان شئت أن أساعدها فسيــكون هــذا كرما بالغا منى وستقدر لى هــذا الجميــل •

فى نهاية الأسبوع التقينا على محطــة الأتوبيس • كانت سحب داكنة تغطى السماء وتجعل النهار معتما وكان الثلج راكدا على الأرصفة وشرفات البيوت • وجاءت آن مارى فى الموعد ترتدى كالعادة بنطلونا وجاكتة بيضاء من الصــوف تضع يديها فى جيبيها ، وتربط كوفية حول رقبتها • لم أرها أبدا تلبس معطفا أو فستانا • وبدت وهى تتقدم منى بخطوتها المترددة نحيلة وضئيلة وشعرت نحوها باشفاق غريب •

قادتنى الى بيتها • كانت تسكن عمارة قديمة ذات شرفات من حديد مقوس مشغول • كثيرا ما مررت أمامها فى الصيف ووقفت أتأمل شرفاتها الرقيقة وهى موشاة بزرع أخضر وزهور حمراء كبيرة • الآن كانت الشرفات عارية وقد تكومت نقط من الثلج على الأجزاء المحدبــة من قضــبان الحديد المقوس المتوازيــة •

لم نكد نقول شيئا حتى وصلنا الى شقتها ، ولكنها ونحن

نصعد السلم غمغمت باعتذار لأنه ليس هناك مصعد وهى تسكن فى الدور الثالث . فتحت الباب بمفتاحها وفى مدخل الشقة كانت هناك ستارة بيضاء ، عبرناها فدخلنا الى صالة فيها مناضد صغيرة تعلوها دمى وتماثيل خشبية صغيرة على مفارش بيضاء مطرزة . كانت المفارش ناصعة البياض والمناضد الصغيرة والتماثيل التى تعلوها موضوعة فى أبعاد متناسقة تماما وسط زهور عفية ومعتنى بها . كانت زهور قرنفل كبيرة بيضاء وحمراء ووردية . وعلى جانبى الصالة كان هناك دولابان خشبيان بضلف زجاجية لها ستائر من الداتيللا ، ويزدحمان بالكتب . ووسط الدولابين بالضبط مائدة خشبية مستطيلة تجلس اليها سيدة ذات شعر أبيض معقوص تلبس نظارة كبيرة العدسات وتقرأ مجلة . قالت آن مارى هذه أمى ، ثم تقدمت منها وقبلتها فى جبينها وقالت بصوت عال هذا هو . هزت رأسها وابتسمت وقالت صباح الخير يا سيدى . فقلت صباح الخير . قالت آن مارى ارفع صوتك انها لا تسمع جيدا . جلست على كرسى بجوارها وظللت ساكتا بينما كانت هى تحنى رأسها وتتطلع الى مبتسمة بعينها الزرقاوين الصافيتين اللتين ورثتهما آن مارى . تطلعت الى طويلا من خلف العدستين الكبيرتين المنزلقتين على أنفها ، ثم قالت من افريقيا ؟ هززت رأسى فأشارت بيدها الى قناعين سوداوين مرشوقين فى الحائط يتوسطهما صليب خشبى وقالت أحب النحت الافريقى . ضمت

أصابعها البيضاء المتغضنة وأخذت تهز قبضتها وهى تقول فيه القوة ، ثم فتحت راحتها وحركت يدها حركة متموجة وقالت وفيه أيضا رشاقة ونعومة • ثم قالت من أين فى افريقيا ؟ قلت بصوت مرتفع أنا من مصر • رفعت حاجبيها مندهشة قليلا وقالت مصر ؟ تمنيت دائما أن أزورها • ذهب زوجى الى مصر سنة ••• فى سنة ، لا أذكر • لم نكن قد تزوجنا بعد ولكنى مازلت محتفظة بالصور • اعتمدت بيدها على المائدة وهمت بالنهوض ولكنها توقفت لحظة ولكنى أذكر أن زوجى قال لى انهم فى مصر يجيدون السحر • قلت بدهشة السحر ؟ فهزت رأسها ، قلت وأنا أحاول أن أضحك ، ربما كان ذلك أيام سيدنا موسى • فقالت وهى ما تزال تعتمد بيديها على المائدة شاهد زوجى أشياء ، فقلت ربما • نهضت من مكانها بصعوبة وفى هذه اللحظة عادت آن مارى تحمل ثلاثة أكواب من الشاى على صينية وقالت بصوت مرتفع يكفى هذا يا ماما • فقالت أمها بنوع من الاحتجاج ولكننى أريد أن يرى هذا السيد الصور • وسارت ببطء محنية الظهر الى أحد الدواليب وفتحته • قالت آن مارى باعتذار وهى تضع أكواب الشاى على المائدة انها لا تخرج كثيرا وعندما ترى أحدا لا تكف عن الكلام • فقلت لا يضايقنى هذا • وكانت أمها الآن تكلم نفسها وتقول أين ذهب ؟ أين يمكن أن يكون قد ذهب ؟ كان دائما هنا •

حملت آن مارى كوب الشاى الموضوع فى حامل معدنى

وقالت تعال • لنذهب الى غرفتي • فحملت كوبى وتبعتها •

كانت غرفتها صغيرة ومرتبة ، أثاثها حديث وبسيط على عكس الصالة وتشغل الحائط أرفف عليها كتب كثيرة • وكانت تتوسط أحد الأرفف زهرية طويلة من الكريستال فيهــا زهرة واحدة بيضــاء كبيرة • وعلى الحائط كانت صــور القديس فرانسوا برأسه الحليق فى الوسط • وكان اللون الأبيض فى كل مكان ، المفارش وغطاء السرير وستائر النافذة الدانتيلا • وحين فتحت آن مارى ستارة النافذة ظهرت فى الخارج شجرة أرز تكوم الثلج على غصونها العريضــة الخضراء التى تشبه كفوفا مبسوطة ، ومن حولها أشجار تتشابك غصونها العارية المطلية بالجليد • جلست آن مارى على كرسى صــغير بجانب النافذة ووضعت راحتيها بين ركبتيها المضمومتين وأخذت تتطلع للخــارج •

قلت لها وكنت ما أزال واقفــا عند باب الغرفــة وكوب الشاى فى يدى ، المنظر جميل من نافذتك • تطلعت الى مبتسمة وقالت شكرا ، لم لا تجلس ؟ وأشارت الى مقعد مستدير بدون مسند أمام مرآة صغيرة ، جلست تكاد ركبتى تصطدم بركبتها ورحنا نتطلع من النافذة ونحن نرشف الشاى •

قالت دون أن تنظر فى وجهى بالأمس حلمت بك •
وقالت تعال • لنذهب الى غرفتى •

قلت أنا آسف ، ثم ضحكت •

قالت وهي تسدد الى نظرة ثابتة لماذا أنت آسف ولماذا تضحكك ؟

ـ ما الذي يمكن أن أقوله عندما تخبرينني بهذه اللهجة الحزينة أنك بالأمس حلمت بي ؟

هزت رأسها وقالت أول أمس أيضا حلمت بك • حلمت صقرا كبيرا يضرب نافذتي بجناحيه ويتطلع الى بغضب وهو ينقر الزجاج محاولا أن ينفذ منه ثم جئت أنت فاحتضنك الصقر بجناحيه • صحوت من النوم وكنت أبكي •

لم أضحك ونكست رأسي •

قالت بهدوء ـ ماذا تفعل لكي يحدث هذا ؟

رفعت رأسي بدهشة وأنا أكرر السؤال ماذا أفعل لكي يحدث هذا ؟

ـ نعم •

ـ أنت تعنين هذا السؤال ؟ تعتقدين أنني يمكن أن أفعل شيئا يجعلك تحلمين بي ؟

ضحكت آن ماري بعصبية ومدت يدها الى فأخذت كوب الشاي الفارغ ثم قامت وخرجت •

خارج النافذة حط غراب على شجرة الأرز •

أخذ يطير متخبطا بين الغصـون وهو يبحث عن غصـن لا يغمره الثلج ، وحين وجده فرد جناحى حداده الأبدى وراح ينفضهما ثم انكمش •

رجعت آن مارى وأغلقت باب الغرفـة وقفت بجانبى ثم قالت فيم تفكر ؟

ـ لو قلت لك ستضحكين •

ـ اذن أرجوك قل • أتمنى أن أضحك •

ـ يحزننى أن هـذا الغراب على تلك الشجرة تعيس • ويحزننى أن يكره الناس فى العالم كله الغراب مع أننى لم أسمع أنه آذى انسانا •

ـ تحزن للغراب وتحزن لغادة الكاميليا • الا تهتم بأمرنا نحن البشر من لحم ودم ؟

ـ كففت عن ذلك منذ زمن •

ـ أما أنا فيحزننى أن تنهزم فى هـذا العـالم الرقـة والحساسية وأن ينتصر الشر • يحزننى أن تموت غادة الكاميليا لأنها أحبت وضحت ولكن يحزننى أيضا أن أعلم أن فى هـذه الدنيا جوعى فقراء لا يجدون طعاما ومرضى فقراء لا يجدون

دواء ، أو اذا وجدوا الدواء فان الموت يخطفهم دون مبرر • يحزنني الموت بصفة خاصة •

ـ وكل ذلك كان يحزنني ذات يوم وغيره كثير ••

ـ ومتى فقدت اهتمامك بهذا كله ؟

ـ لا أذكر بالضبط • ربما منذ جئت الى هنا • ربما قبل ذلك بقليل وعندها قررت أن آتي هنا •

ـ واذن فأنت الآن بم تبشر ، بالفناء ، بالعدم ؟

ـ ولا حتى بهذا •

ظلت تتطلع فترة من النافذة في صمت ، ثم قالت بلهجة مختلفة وهي تشير الى شجرة الأرز •

ـ أظن هذه الشجرة في بلدكم ؟

فقلت ـ لا ، ولكن في ناحيتنا •

قالت ـ بعد اذنك • يتعبني نور النهار الكابي الذي يشبه الليل • أفضل الكهرباء •

ثم أسدلت الستار فأصبحت الغرفة شبه معتمة ، لكنها ظلت تقف بجانبي ووجهها الى النافذة ثم قالت بصوت خافت •

ـ هل أنت واثق من أنك لا تستطيع مساعدتي ؟

مددت يدى وأمسكت يدها القريبة منى • كانت باردة كالثلج فأخذتها بين راحتى • انحنت وركعت على ركبتيها بحيث أصبحت تواجهنى وقالت بصوت خافت ــ من أنت ؟ وما معنى هذه الأحلام ؟ ولماذا تلازمنى ؟

قلت : من أنت ولماذا ظهرت فى حياتى وماذا تريدين منى ؟

اقتربت منى وهى تزحف على ركبتيها ثم قبلتنى فى جبينى• كانت شفتها باردة كالثلج فأمسكتها من كتفيها وقلت ليتنى أستطيع أن أساعدك • ليتنى أستطيع أن أساعد نفسى •

ولكنها فجأة وبحركة سريعة جدا وهى ما تزال راكعة أمامى خلعت بلوزتها الصوفية وخلعت حمالة صدرها ودفعت نفسها فى صدرى وهى تحيطنى بذراعين متشنجتين وقالت ــ هيا ، ان كان هذا هو ما تريد فيها • ها هو السرير •

أبعدت ذراعيها عنى بقوة وخرج صوتى مختنقا وأنا أقول ، لا ، ليس هذا هو ما أريد ربما تكونين جميلة • أنت بالفعل جميلة ، ولكنى لم أرك أبدا أكثر من طفلة •

ثم قمت والتقطت بلوزتها الساقطة على الأرض وأعطيتها لها •

تناولتها من يدى وقامت فجلست على طرف السرير ثم

كومتها وأخفت فيها وجهها وأخذت تبكى بعنف وجسمها كله يرتعش وهى تردد ـ اذن قل لى . قل لى أرجوك ماذا تريد ؟ ماذا تريد ؟

ـ ما أريده مستحيل .

ما هـو ؟

ـ أن يكون العالم غير ما هو . والناس غير ما هم . قلت لك ليست عندى أفكار ولكن عندى أحلام مستحيلة .

ـ وما شأنى أنا بذلك ؟ لمـاذا أتعذب أنا ؟

ـ وكيف أفهم أنـا ؟ ما الذى أستطيعه ؟ قـولى لى وسأفعله أتحبين أن أترك هذا الحى ؟ هذه البلدة ؟

ـ هل سيساعدنى ذلك .

ـ وكيف أعرف ؟ ان كنت لا أفهم كيف أساعد نفسى ، فمن أين لى أن أفهم كيف أساعدك ؟

مدت ذراعيها تبحث عن أكمام بلوزتهـا ثم لبستها ببطء وظلت لفترة تجلس على طرف السرير صامتة متهدلة الكتفين ثم قالت بصـوت خفيض ـ الآن فهمت كل شىء . نعم الآن أرى كل شىء ، ولكن ما أشد هذا الحزن .

ـ ماذا فهمت ؟

قالت بنفس الصوت الخفيض ــ هذا سرى •

ثم مدت يدها وهى ما تزال جالسة وضغطت زرا بجانب السرير فأضاء الغرفة نور كالمفاجأة •

تطلعت الى وقالت ــ أرجوك أن تسامحنى •

ثم حاولت أن تبتسم وهى تقول ــ فى كل مرة أقابلك أضطر أن أعتذر لك • ولكن أعدك أن هذا لن يحدث بعد الآن •

كانت عيناها محتقنتين ولكن وجهها كان شاحبا جدا •

وعندما خرجنا من الغرفة كانت أمها تجلس فى مكانها الى المائدة وهى تقلب فى البوم سميك الأوراق ولما رأتنى قالت بلهفة تعال يا سيد ، وجدت الصور •

توجهت نحوها • كانت صورا قديمة • تلك الصور المائية التى يبدو فيها الداكن بنيا والفاتح رماديا • كانت لمعبد الكرنك والدير البحرى والاهرامات ولكنها أشارت الى واحدة فيها رجل يجلس على سنام جمل يبرك على الأرض أمام الهرم • كان الرجل مستدير الوجه يلبس سترة داكنة وياقة بيضاء وكان يبتسم • وأمامه يقف ممسكا بمقود الجمل رجل يلبس جلبابا يبدو ذراعه النحيل من كم جلبابه الواسع •

تطلعت اليه والى شاربه الذى يعلو فمه الواسع • الى وجهه المقطب الحزين • كان يشبه أبى •

قلت للعجوز ـ هل آخذ هذه الصورة ؟

رفعت رأسها الى وقالت وهى تثبت نظرتها فى وجهى دون أن تبتسم •

ـ أنا أفهمك • أفهمك تماما •

ثم أغلقت الألبوم فجأة وقالت ـ معذرة • لا يمكن أن تأخذ هذه الصورة •

وكانت آن مارى تقف هناك ، شاردة ، لا تتابع حديثنا ، تعتمد بيدها الى المائدة •

***

(٣)

فى الأسبوع الثالث ذاب الثلج ولكن بقيت بعض أكوام منه كالرمل بحذاء الرصيف . وظلت الغيوم فى السماء وظل نور النهار ضعيفا .

وفى هذا الأسبوع قال لى فتحى بقلق اننى أزداد نحولا يوما بعد يوم وأننى يجب أن أرى طبيبا . قلت له انه يستطيع أن يساعدنى أفضل من أى طبيب لو شرح لى كيف أفهم هـذه الدنيا . قال لى طبيبك أنت ولكن لا تقـاوم . قلت له ليس هذا هو الكلام الذى يساعدنى، فهز رأسه فى حزن .

استدعانى رئيسى فى العمل أيضا وقال لى نفس الشىء . قال ان صحتى « بسيطة تمام »، وانه يمانع فى اعطاء الاجازات هذه الأيام بسبب ضغط العمل ، ولكنه لن يرفض اذا طلبت لأنه لا يريد أن يفرط فى . شكرته وقلت له اننى لا أحتـاج الى أجازة .

اتصل بى كمال مرة فى منتصف الأسبوع وقال انه يطلبنى كثيرا ولا يجدنى فأين أذهب فى المساء . قلت أخرج وأمشى . قال فى هذا البرد . قلت نعم .

لم تظهر آن مارى على محطة الأتوبيس فى أى صباح .

ذهبت مرة الى مكتب البريد قبل أن أتوجه الى العمل ، ولكنها لم تكن هناك أيضا .

وحلمت بها ذات ليلة وكانت فى الحلم طويلة الشعر تجرى على شاطىء بحر وهى خائفة وكأن شيئا يطاردها . وعندما استيقظت كان العرق يغمرنى وكنت أشعر بشىء من الخوف .

قرب نهاية الأسبوع اتصل بى كمال فى التليفون وكان منفعلا . قال انه فعلها . انه فعلها أخيرا واستراح . قال انه كان يعتقد أن كل ما يشكو منه الصداع ، الأرق ، الكوابيس ، نوبات البكاء كلها ترجع الى موجات الكهرباء ولكنه كان مخطئا . سألته أية كهرباء ، فقال ألا تعرف انه فى هذا البلد توجد أعاصير كهربائية فى أيام معينة تؤثر على المخ ؟ قلت له اننى لم أسمع بذلك ، فقال هذه حقيقة معروفة الا ترى أن كل الناس يتصرفون تصرفات غريبة ؟ قلت له اننى مندهش لأننى أراهم مع ذلك أذكياء فى تدبير أمورهم ، ناجحين فى أعمالهم ، أثرياء وصحتهم جيدة . فهل تصيب هذه الكهرباء أجزاء معينة من المخ وتترك أجزاء أخرى ؟ هل تصيب أناسا وتترك آخرين ؟ قال لى كمال وهو ما يزال منفعلا أنت تنظر الى الأمور من السطح ، كل هذه الأشياء لعب من الكرتون . البيوت العالية والمصانع الهائلة والطائرات السريعة والمقابر ذات التماثيل والزهور . كل هذه لعب من الكرتون لا تخدع سوى الأطفال .

أنظر الى الداخل ولن تجد سوى خرائب . أنظر لمن يكلمون أنفسهم فى الطرقات . لمن يجلسون فى المقاهى يحدقون بنظرات كعيون الأسماك الميتة . أنظر لهذه الوحدة والجنون والكراهية. ما الذى يرغمنا على ذلك ؟ هذا الكون رحب ورائع لكننا ندفن أنفسنا فى جلودنا ، تعمى عيوننا عن النعيم الحقيقى والفرح الحقيقى ، فلماذا لا أفتح عينى . لماذا لا أفعل مثله . لماذا لا أقرأ الكتاب ؟

سألته ماذا سيفعل الآن فقال انه استقال من البنك وانه ينوى أن يعود الى مصر وينصحنى أن أعود معه . نبنى بيتا فى مكان ما فى الصحراء . خلفنا الخلاء وأمامنا البحر وفوقنا السماء . نعيش بعيدا عن التكالب وعن الزحام وعن شجار الأطفال الدنيويين الذين لم يعرفوا نضج العقل المجرب ولا براءة العمر البكر . نعيش ما بقى من عمرنا فرحة حقيقية فى ذلك النعيم السماوى .

شكرته وقلت له اننى أتمنى له السعادة التى تريدها واننى سأفكر .

لم أنم جيدا فى تلك الليلة وفكرت كثيرا فى آن مارى .

فى الصباح نزلت مبكرا قبل موعد العمل وتوجهت الى

بيتها • كان الصبح قد بدأ لكن الشوارع كانت دامسة وأنوار الطريق ما تزال مضاءة •

رتبت كيف سأعتذر لذهابى فى هذا الموعد المبكر : بحثت فى مكتب البريد ولم أستطع الاهتداء الى رقم التليفون فى الدليل فجئت لمجرد أن أطمئن عليها • ولم أكن أعرف ان كان هذا السلوك يعد خارجا أم مقبولا فى نظر أهل البلدة •

ضربت الجرس مرة • لم يرد أحد •

هل يحتمل أن تكون قد خرجت فى مثل هذا الوقت المبكر ؟ سافرت مع أمها بعيدا ؟ ما الذى يمكن أن يكون قد حدث ؟

خرج رجل من شقة مجاورة يحمل فى يده حقيبة • تطلع الى بفضول ثم أدار المفتاح فى باب الشقة وتوجه الى السلم ، لكنه لما رآنى أضغط الجرس مرة أخرى استدار وعاد الى : قال ـ أعتقد أن أحدا لن يفتح لك • منذ ماتت الآنسة والمدام مريضة ••

الآنسة ؟ من ؟ كيف ؟

قال الرجل ـ ألا تعرف ؟ ربما كان يجب ألا أقول لك ، ولكن ما دمت ستقابل المدام فربما يحسن ••

قلت مرة أخرى ــ آن مارى ؟ كيف ؟

قال فى حزن ــ الآنسة أنهت حياتها . من شرفة البيت . فى قلب الليل . كنا ...

ولكن فى تلك اللحظة فتح الباب . فتحته السيدة العجوز بثياب النوم ، شعرها الأبيض مهوش حول رأسها وعلى كتفيها المحنيتين شال أسود .

ولما رأتنى صرخت صرخة واحدة ورجعت للخلف .

قالت ــ هل جئت الآن من أجلى أنا يا سيد ؟ هل جاء دورى أيضا ؟

ثم أمسكت مقبض الباب وتهاوت على الأرض فرمى الرجل حقيبته وأسرع اليها ، وعدوت أنا ، عدوت على السلم وعدوت فى الشارع وعدوت فى المدينة .

لم أذهب للبيت ، لم أذهب للعمل ، لم أذهب لمكان .

ولكنى فى المساء كنت فى الفراش .

هل كنت نائما أم كنت مستيقظا عندما خفق فى الغرفة

ذلك الجناح ، وهل كان صقرا أم حلمـا ذلك الذى رأيت ؟
مددت يدى • كنت أسمع الحفيف ومددت يدى • انبثقت أنوار
وألوان لم أر مثل جمالها وحفيف الجناحين من حولى • ومددت
يدى • كنت أبكى دون صـوت ولا دموع ولكنى مددت
يدى •

سندس

كان ذلك الصباح الشتوى دافئا بعد أيام باردة نزلت فيها أمطار نادرا ما تسقط فى القرية . وفى صحن الدار كانت الكتاكيت تجرى وتصوصو بأصوات فرحة بالشمس التى تغمرها وهى ترفرف بأجنحتها ذات الريش الذهبى القصير . ومع ذلك فعندما سمعت أم ادريس نباح الكلب خارج الدار انقبض قلبها . من يأتى فى مثل هذا الوقت ؟ لم تكد تمر ساعة زمن على خروج رمضان والأولاد الى الأرض . لا يمكن أن يعود أحدهم الآن ، فهل جرى شىء لعزوز فى المدرسة ؟ يمشى كالتائه فى البيت وفى الطريق . حدث له شىء فى الطريق ؟ سترك يارب . فى تلك الليلة حلمت حلما مزعجا لا تذكره . لكنها تظن أنه كان هناك لحم نىء فى الحلم . ليست متأكدة تماما ، ولكن ربما كان هناك لحم نىء . سترك يارب .

وعندما وقفت أمامها مباركة وقالت :

ــ سندس الحلبية على الباب •

تنهدت وقالت لنفسها : لم يكن ينقصنى الا هذا • سندس عينها والسم واحد ، لكنها أزاحت مباركة بيدها ، وقالت وهى تطل برأسها من الغرفة الداخلية المظلمة :

ــ ادخلى • ادخلى يا سندس •

دخلت سندس من عتبة الدار تسبقها قدمها اليمنى وقالت :

ــ بسم الله الرحمر الرحيم • الخير لأهل الخير •

كانت تحمل على رأسها صندوقها العتيق تسنده بيدها اليسرى ، بينما تتدلى من كوع اليد نفسها ، ربطة قماش كبيرة معقودة ، وكانت تمسك بيدها اليمنى عصاها الطويلة • توجهت الى أم ادريس التى برز نصف جسمها النحيل من الغرفة • وضعت صندوقها وربطتها وعصاها على الأرض ، واندفعت تمسك يد أم ادريس ، وانحنت عليها تريد أن تقبلها • دفعتها أم ادريس فى صدرها ، وهى تجذب يدها بقوة ، وتقول أ

ــ ابعدى يا كافرة • لا تحملينى ذنوبك • حبيبة يعنى ؟

اكتفت سندس بأن مالت ، وقبلت كتفيها ، وقالت وهى تجلس على الأرض أمام باب الغرفة المفتوح فى صحن الدار المشمس :

ـ أى والله حبيبة ، ويعلم ربى •

جلست أم ادريس على عتبة الغرفة المرتفعة على الأرض بسلمتين عريضتين ، وقالت وهى تواجه سندس :

ـ حبيبة ولا نراك الا فى جمع الغلة • قال لك عقلك أراهم بعد الذرة الشامية • تذهبين الى بيوت الناس ، وتسألين عن الصحة والأحوال ، أما نحن فلا نراك الا فى جمع الغلة • كم مرة ذهبت الى بيت الحاج يوسف ؟

كانت سندس تستمع الى هذا الكلام منكسة الرأس • كانت متعبة هذا الصباح • شعرت بالربطة والصندوق ثقيلين فى يدها فى الطريق •

وتنبهت أنها لم تفطر بعد • ستفطر فى هذا البيت بعد قليل • وسيأتون لها بالشاى ، ورغيف القمح ، والبيض المشوى • أما الآن فالعمل صعب كالعادة مع أم ادريس • كيف تبدأ ؟

انحنت تفتح ربطتها وقالت وهى تضحك :

ـ يديم سعدك يا أم ادريس وأسأل عنك فى الأفراح • اليوم عندى لك بضاعة كلها ان شاء الله للأفراح •

هزت أم ادريس رأسها وقالت :

ـ جئت الى بعد أن انتهيت من الأحباب يا سندس ؟

لكن سندس بدأت تخرج الأثواب المطوية من ربطتها الكبيرة • وأحست وهى تفعل ذلك بعينين مثبتتين عليها • كانت مباركة تقف الى جانبها صامتة لا تتحرك • كانت تتأمل عينى سندس الخضراوين المحاطتين بكحل كثيف ووجهها الأبيض المستدير ، ولما أزاحت طرحتها رأت شعرها الأصفر اللامع ، ورأت فى أذنها حلقا هلاليا مذهبا يكاد يصل الى كتفها • وعندما التفتت اليها قالت مباركة :

ـ أنت حلوة يا سندس وحلقك حلو •

ضحكت سندس مرة أخرى وقالت :

ـ أنت الحلوة • بسم الله ما شاء الله • كبرت يا مباركة •

ثم التفتت لأمها وقالت :

ـ عينها واسعة وجميلة كعين البقر •

ولما بدأت سندس تفرد ثوبا من الحرير الأزرق ، وتعرضه على ذراعها أشارت أم ادريس بيدها خفية لمباركة أن تبتعد ، لكن الصغيرة جلست مقرفصة بجانب الحلبية وبدأت تهرش رأسها • ولاحظت سندس حركة الأم ولم تبد شيئا ، لكنها عرفت الآن ما عليها أن تفعله •

رفعت سندس الثوب المطوى بيدها اليسرى ، وعرضت

القماش الأزرق المقلم بخطوط ذهبيـــة ، ثم فردته على ذراعها اليمنى ، وراحت تهزه •

وهى تقول بنبرة اعتزاز :

ـ ما قولك يا ست العارفين ؟ هل رأيت مثل هـــذا عند أحـــد ؟

لكن أم ادريس حولت بصرها ، وقالت بفتور :

ـ لا تتعبى نفســك يا سندس • لن أشترى ولا بقدح قمح • الأرض لم تعط هذه السنة •

التفتت سندس الى مباركة ، وظلت تهز القمـــاش وهى تقول :

ـ وتبخلين بالثوب الجميل على هذه العروس الجميلة ؟
قالت الأم :

ـ هذه العويل •••

فقالت سندس :

ـ هذه القمر • انتظرى عليهـــا الى أن تطلع الرمانتان • سيطير لها عقل رجال •

ثم وضعت الثوب الأزرق جانبا ، وبدأت تفرد ثوبا من القطن منقوشا بورد أحمر •

قالت أم ادريس بعصبية :

ــ وهذا الثوب الأصفر الذى تخفينه تحت الأثواب • لم تخفينه يا سندس ؟ لمن تخفينه •

قالت سندس :

ــ ما هــو مخبوء خلف نن العين أفرشــه لأم ادريس ، وأفرش لها خدى لتمشى عليه •

لكن أم ادريس هبت فجــأة ، واندفعت نحو ابنتها التى كانت تدعك عينيها ، وقالت وهى تقبض على يدها :

ــ يا عويل ، يا هالكة ناسك • طول النهار فى التراب • يدك فى التراب ، ويدك فى عينك • لا قطرة نافعة ولا شافعة ••

لكمتها فى ظهرها ، واندفعت البنت تجرى داخــل البيت وهى تبــكى ، وتناثرت الكتاكيت التى كانت قد تجمعت كتلة واحدة فى الشمس ، وراحت تعدو متبعثرة فى صحن البيت وهى تصدر أصواتا رفيعة فزعة •

قالت سندس للأم التى عادت تجلس على عتبة الغرفة :

ــ لا تضربيهــا يا أم ادريس • لم تعد طفــلة • ســنة أو سنتان ، ويأتيها الخطاب • وسيسحرهم جمال عينيها •

زمت أم ادريس شفتيها ، وقالت للحلبية وهى تلهث :

ـ لا تتعبى نفسك يا سندس . قلت لك لن أشترى ولا بقدح قمح . تخفين عنى الثوب الأصفر ؟ تخفين الأشياء الجميلة لأحبابك ؟ لن أشترى ولا بحفنة قمح .

قالت سندس وهى تنزع الثوب الأصفر الذى لم يكن يظهر الا طرفه من تحت بقية الأثواب :

ـ ما شاء الله يا أم ادريس ! تخونين خدامتك وجاريتك ؟ والله هذا الثوب لك ، ولن آخذ فيه شيئا . هو منى لمباركة .. وألقت الثوب بجانب الأم وهى تقول :

ـ والله هذا عندى . الغالى للغالية يا أم ادريس .

قالت أم ادريس وهى تقوم من جديد :

ـ لا تنفع معى حركاتك يا سندس . اطفحى الشاى وبعدها يحلها الحلال .

لكن عقلها كان مشغولا وهي تمضى .. ماذا تفعل لتصرف هذه العين الملعونة عن مباركة ؟

فى الظهيرة ، كانت السحابات القليلة قد تبددت . وتحولت شمس الصباح الى لسعة حامية ، فلاذت الكتاكيت الى الظل ، وخفتت أصواتها . وكانت سندس أيضا تجلس فى الظل وهى تسند ظهرها الى الحائط ، وقد مدت ساقيها ، وأمسكت بيدها

كوبا من الشاى • وكانت تحتضن مباركة بيدها الأخرى ، وقد جلستا وحيدتين وصامتتين •

كانت سندس قد أفطرت • وكانت قد باعت الثوب الأصفر ، والثوب الأزرق المقلم ، والثوب المنقوش بالورد • وباعت من صندوقها ابريقا للشاى ، وأطباقا من الصينى • وشربت أم ادريس فنجانا من القهوة ، وقرأته لها سندس • ورأت فيه أن الأرض ستعطى كثيرا ، وأن أم ادريس ستحج الى بيت الله ، وها هى زينة العودة • وسينجح عزوز فى المدرسة هذا العام • أنصتت لها أم ادريس باتباه وهى تعتمد ذقنها بيدها ، وتهز جسدها على وقع كلمات سندس • ولكن بعد أن انتهت الحلبية قالت لها : ان عزوز خائب ، وان الأحسن له أن يترك المدرسة ، ويعمل فى الأرض مع أبيه وأخوته •

رفعت مباركة رأسها من حضن سندس وسألتها :

ــ لماذا تحملين دائما هذه العصا الطويلة يا سندس ؟

قالت سندس :

ــ لأهش بها الكلاب يا مباركة • أتنقل طول النهار من بيت الى بيت والكلاب لا تعرفنى • لو لم تكن معى العصا تنهشنى الكلاب •

قالت مباركة :

ـ ولكن أنت أحلى واحـدة فى البلد يا سـندس • لم لا تتزوجين وتقعدين فى بيتك ؟

ضحكت سندس وقبلت مباركة • وكانت الأم تعود وهى تحمل فى ربطة صغيرة رغيفين من القمح وبيضـات مشوية • وعندما رأتها سندس أبعدت يدها عن مباركة • وكانت أم أدريس تقول لابنتها :

ـ رجعت يا مكشوفة الوجه •

فقامت مباركة تجرى واختفت داخل البيت •

وعندما نهضت الحلبية ، وساعدتها أم ادريس فى وضع الصندوق على رأسـها ، وتوجهت نحو الباب ، وهى تدعـو لأم ادريس ، وللحاج • وللأولاد ، تذكرت مباركة ، وتذكرت المرة القادمة التى ستأتى فيها الى هـذا البيت فتوقفت وقالت :

ـ ويخلى لك مباركة وتفرحين بها يا حاجة • البنت كبرت ما شاء الله • لكنها مثل عود الذرة الناشف • خذيها للطبيب • غدا يخرطها خراط البنات ، ومن يرضى ببنت مثل عود الذرة ؟

خرجت الحلبية ، وسمعت الأم نباح الكلب ، وصرخات سندس عليه وهى تهشه ، فتنهدت • لكنها نادت مباركة • راحت للكانون وهى تجـذب البنت من رقبتهـا • أخرجت من جيب جلبابها الأسود فصا من المستكة ، وأخرجت بالمـاشة جمرتين ، وجعلت مباركة تخطو فوقهما سبع مرات •



النافــــذة

ظن البعض انها نكتة . ففى الصباح فى البرد ، قبل شرب الشاى ، وساعة الرءوس المختفية داخل صحف الصباح مر علينا الساعى بمنشور ادارى غريب . رفض البعض استلامه ، وقالوا انها لعبة سخيفة على الصبح ، واتهموا الادارة المجاورة . ولكن بعد أن تأكد الأستاذ كمال أن توقيع المدير العام لا تزوير فيه وقعنا بدورنا بالعلم والتنفيذ: « ممنوع على الموظفين الوقوف فى النوافذ والشرفات فى أوقات العمل الرسمية » علت الدهشة والتكهنات وقال حسان بغموض ان الأمر أخطر مما تتصور ولكننا كنا متأكدين انه لا يعرف أى شىء .

وبعد لحظة دخل مديرنا ووقف وسط المكتب صامتا محنى الرأس وبيده المنشور . سأله سامح عن المسألة ولكن المدير

قال وهو يتأمل المنشور فى حزن : ان هــذه هى آخر قشة • فلا يكفى انه متخلف عن كل زملائه فى الدرجة ، ولا يكفى أن الحكومة ترفض الاعتراف بالدكتوراه التى حصــل عليها من اليابان وتعامله بالليسانس ، ولا يكفى انه مبعد عن كل اللجان ذات الأجر الاضافى ، ولكن ها هو النحس الأخير : المدير العام يهدده بالنقل لأنه لا يستطيع أن يسيطر على الموظفين •

كان سمير أكثرنا خبرة بمديرنا فأجلسه على كرسى فى وسط المكتب ، وطلب له الشاى ، وقال ان الأمور فى المصلحة سلاطة ، وان الكفاءات مضطهدة وان الموت أحسن من الحياة بكثير ، وان أحدا لا يفهم شيئا ــ فمثلا ما معنى هــذا المنشور ، قــال المدير حزينا ان سببه هو دلع البنات • فالبنت التى لا تريد أن يعاكسها أحد تبعد من نفسها ، وقد ظل يقول هــذا دائما لناظرة المدرسة الثانوية التى تواجهنا كلما كلمته فى التليفون واشتكت من معاكسة الموظفين للبنات • ولكن اتضح أخيرا أن فى مجلس الأباء بالمدرسة رجلا مهما جدا ، اشتكت له الناظرة ، فاتصــل بالمدير العــام ، وهدد أن ينقل المسألة للوزير شخصــيا ان لم تتوقف معاكسات الموظفين •

سأل سمير ، ولكن لمــاذا يتهمون ادارتنا بالذات ؟

فقال المدير ان هذا فى الغالب من شكاوى الناظرة الملعونة ، ثم وضع يده على صدره وسألنا ، هل نريد أن نذبحه ذبحا ؟

الا يمكن أن نكف عن المعاكسة من أجل خاطره •

تعالت أصواتنا بحب المدير ، وأكد سمير أن المعاكسة نوع من التفاهة ، ووافقناه جميعا • قال المدير انه لا يبقى فى المصلحة الا من أجلنا ، لأننا كأولاده ، أما بقية المديرين الملاعين فهم يكلمونه من أنوفهم • يتباهون عليه بعضوية اللجان فى الغالب • والآن ها هو تعنيف المدير العام •• فهل معنى هـذا أن تضيع عليه فرصـة الترقية بالاختيار فى المرة القادمة أيضا ؟ •• وهل يجب فى هذه الحالة أن يدخـل لوكيل الوزارة بنفسـه ؟ •• أم يهاجر الى اليابان ويشتغل بتدريس اللغة العربية فى جامعـة هنـاك ؟ •

كان علينا أن نهدىء مديرنا المتخلف فى الدرجة وأن نؤكد له أن مخاوفه غير صحيحة ، وان مكتبنا بالذات مشهود له فى المصلحة بأنه لا يعاكس البنـات • وعندما جاء الشـاى سأله الأستاذ كمال أكبرنا سنا ووقارا ــ هل صحيح أن شرب الشاى هو نوع من العبادة فى اليابان ؟ فشرح مديرنا بالتطويل أنه ليس كذلك ولكنه نوع من المحبة بين البشر ، ثم فرد يديه ليشرح ، ولكنه تعثر وكرر بصـوت خافت (المحبة بين البشر) • قال حسان انه سمع من مصادر مؤكدة انهم يشربون الشاى هناك بمغارات مخصوصة فى الجبال ، فغضب مديرنا لذلك وقال ان اليابان راقية جدا ، وانه البلد الوحيد فى العالم الذى تجرى

فيه القطارات على كبار معلقة فوق المدن • قال سامح ، ويكفى أيضا أن مديرنا تعلم هنـاك • احمر وجه المدير وخرج وهو يتمتم بكلمات غير واضحة •

عندما خرج عاتبنا سامح لسخافتـه مع المدير ، ولكنـه أشاح بيده قائلا اننا سعداء لأننا نركبه . أما الحقيقة فهى أن المصلحة كلها تركبنا بسبب ضعفه • فمثلا لمـاذا لا نحصـل على مكافآت تشجيعية ؟

قال سمير ان مديرنا طيب جدا ، وانه من أنشط المديرين بالفعل ، وانه ينجز العمل بكل مهارة ، ولا يعيبه غير مسألة الشكوى فأيدناه فى ذلك أيضا •

ولكن حسان انتهز فرصة تجمعنا فى وسط الغرفة وقـال انه نتيجة لبعض الظروف والمشاكل العائلية فهو يريد جنيها من أى واحد منا • اعطاه الأستاذ كمال الجنيه وهو يبتسم فى خجل، وعدنا الى مكاتبنا •

وبعد قليل انتهت الحصة الأولى فى الفصـل المقابل لنا • بدأت البنات يقفن فى النوافذ ويشرن بأيديهن ولكن أحدا لم يتحرك واكتفينا بالنظر من أماكننا على المكاتب • وتكرر ذلك بعد الحصـة الثانية ووقفت البنات يتهامسن باستغراب ، ثم

تجرأت واحدة فوضعت كرسيا فوق مكتب وجلست عليه بحيث أصبحنا نراها جميعا ثم وضعت ساقا على ساق وبدأت تزيح ذيل مريلتها بالتدريج ، والبنات يصفقن ضاحكات ، وعندما ظللنا جامدين فى أماكننا بصقت نحونا باحتقار ثم نزلت وأغلقت النافذة فى عنف •

وقال الأستاذ كمال ووجهه محمر جدا انه يلاحظ أن الجيل السابق كان أكثر أدبا من الجيل الحالى وهو لا يعنينا بالذات •

فقال له سمير أن يأخذ راحته فى الكلام •

قبل الظهر تأكد أن الشبهات تتركز حول مكتبنا •• جاءنا استدعاء جماعى عاجل من النيابة الادارية فذهبنا نحن الخمسة كمال وسامح وحسان وسمير وأنا • جلسنا متراصين أمام باب وكيل النيابة الذى استدعانا حسب الحروف الأبجدية •

بدأ الجميع سعداء بفرصة الخروج من المكتب قبل موعد الانصراف وكانوا متحمسين ومرحين ، ولكن من يحين عليه دور الدخول كان ينقبض قليلا • وقال الذين خرجوا ان الاجراءات بسيطة : تقسم أن تقول الحق ، وتقسم أنك لم تعاكس وأنك لا تعرف من يعاكس ثم توقع فى نهاية الورقة • وقال حسان انه أقنع وكيل النيابة ببراءتنا جميعا وأنه وضعه فى جيبه تقريبا وليس لنا أن نخاف من شيء • ولكن كانت هناك مفاجأة ــ فقد خرج سمير عابسا ورفض أن يبوح لنا بشيء •

كان دورى هو الأخير ، وحين دخلت كان وكيل النيابة يتكلم فى التليفون هامسا ويقول (نعم .. نعم .. نعم) ـ وأشار لى بيده أن أجلس وأشار لسكرتيره الذى كان يجلس أمامه فى وقار ، عابسا تقريبا ، فدون اسمى فى رأس ورقة وكتب سطرين وجعلنى أقسم أن أقول الحق .

وضع وكيل النيابة السماعة وتنهد وضم يديه أمامى على المكتب وقال لى ـ أنت بالطبع لا تعاكس .

بالطبع .. وبالطبع لا أعرف من يعاكس وأقسم .

وصمت وكيل النيابة وراح ينظر الى والى السكرتير من وراء نظارة طبية سوداء . ثم سألنى بغير مبالاة آ

ـ هل أنت عازب ؟

ـ نعـم .

ـ وأين تسكن ؟

ـ فى لوكاندة .

ـ وأين أسرتك ؟

ـ فى البلد .

كانت عينى على السكرتير وهو ينبش ذلك بخط سريع غير مقروء وعندما انتهى أردت أن أقوم ولكن وكيل النيابة أشار لى بيده أن أجلس — وسألنى :

— أين مكتبك بالضبط بالنسبة للنافذة المطلة على الفصل؟

— بجوارها مباشرة •

— وبالنسبة لمكتب من يسمى ••

بدأ يقلب فى الأوراق فقال سكرتيره بسرعة وأدب : سمير حسن •

رفع وكيل النيابة رأسه من الأوراق وتطلع الى مستفهما : نعم ، سمير حسن •

فقلت : أمامى • مكتبه فى مقابل مكتبى •

فقال : اذن فاذا وقف واحد عند النافذة فلابد أن تراه أليس كذلك ؟

— نعم • ولكن الجميع يقفون •

قال وهو يرفع يده أمام وجهى ويبتسم أرجوك أجب على قدر السؤال •

فقلت : نعم •

قال وهو ما يزال يبتسم : أين تقضى أوقات فراغك بعد العمـــل ؟

ـ ...

ـ هيا ، أين ؟ .. فى اللوكاندة ؟ فى المقهى ؟ فى ناد ؟ على النيل ؟ ليس صعبا أن تجيب .

ـ لا أعرف كيف أجيب .

ـ اذن فأنت لا تفعل شيئا محددا ، تفعل شيئا مختلفا فى كل يوم . أهـــذا هو الجواب ؟

ـ أنا لا أفعل شيئا أبدا . أمشى فى الشوارع حين أجد الوقت .

ـ وحـــدك .

ـ وحـــدى .

ـ ولكن كيف ؟ ماذا تفعل ؟

ـ أليس لك أصدقاء ؟

ـ زملائى فى المكتب ـ لكننا لا نلتقى بعد العمل .

ـ أمشى فقط ، ثم أعود الى اللوكاندة .

ـ من يقف فى النافذة ؟

ـ مـاذا ؟

ـ من يقف فى نافذة المكتب ؟

ـ لا أعرف •

ـ قلت حالا أن الجميع يقفون •

ـ نعـم •

ـ من بالذات ؟

ـ لا أحد بالتحديد • الجميع يقفون •

بدأ يقرأ على الاسـماء ويسألنى وهو يقرأ كل اسـم : « هل يقف فى النافذة ؟ » ـ أردت أن أقاطعه ولكنه قال لى وهو يقرأ (نعم أو لا) •

قلت بصوت مرتفع الى حد ما ـ لا أعرف • لا أراقب من يقف بالنافذة •

ـ وماذا يفعل من يقف فى النافذة ؟

ـ لا أعرف •

ـ هل تقف أحيانا فى النافذة ؟

ـ لا •• نعم ، نعم • أقف أحيانا •

ـ وماذا تفعل حين تقف فى النافذة •

ـ لا شىء • أتفرج على الشارع •

ـ وماذا يوجد فى الشارع ؟

ـ أقف أحيانا لأنى تعبت من الجلوس على المكتب .

ـ ماذا يوجد فى الشـــارع ؟ الا يقع بصرك أحيانا على فصل البنات أمامك ؟

ـ لا .. نعم ..

ـ أنت مرتبك ؟

ـ لا ..

ـ متعب ؟ نوقف التحقيق ؟

ـ لا ..

ـ كن صريحا . المسألة سهلة . نوقف التحقيق . أطلب لك كوبا من الشاى ؟

ـ لمــاذا ؟ فقط أرجوك أن تسألنى أسئلة محددة .

ـ هل ستعلمنى عملى ؟

ـ لا . أنا آسف .

ـ هل تشعر أنى متحيز ضدك ؟ هل هناك سبب لهذا ؟..

ـ مطلقا . أنا آسف .

ـ ما معنى هذا اذن ؟ أردت أن أطلب لك الشاى .

ـ أشكرك • لا داعى •

ـ اذن سؤالى واضح وبسيط • هـل تنظر أحيانا الى فصل البنات ؟

سكت مرة أخرى فقال وهو يضحك متحيرا •

ـ أنا لا أفهمك • أنت انسان غريب • تتوقف عند الأسئلة البسيطة • زميلك سمير اعترف بكل بساطة أنه يعاكس البنات فى المدرسة ولم نسجنه لذلك • المسألة كلها تافهة فى الحقيقة • وأنت ترفض الاجابة على الأسئلة البسيطة •

ـ غير صحيح • غير معقول أن يقول ذلك •

قال وهو يخلع نظارته : كما تشاء • أجب على سؤالى •

صحت فجأة : حسنين سالم !

قال فى دهشة • نعم ؟

أشرت له بارتباك : أنا آسف ، ولكن سيادتك •• حين خلعت النظارة •• أقصد ــ هل أنت حسنين سالم ؟ السعيدية الثانوية ؟ القسم الداخلى ؟

قال : نعم • ثم حدق فى لفترة ، وبدا يضحك فجأة وهو يقول : أنت !

فأسرع سكرتيره يقرأ اسمى بلهفـة ويتطلع اليه مبتسما فقال : نعم ، نعم •• الرحلة للسودان مشيا على القدمين ! ثم عاودته نوبة الضحك ــ وضحكت أنا أيضـا حين تذكرت • قال وسط ضحكاته وهو يمسك جبينه : عدنا قبل أن نصـل الى الحوامدية •• بل قبل أن نخرج من الجيزة •

فقلت له : أنت الذى بدأت بالشكوى •

ــ تورمت أقدامنا ، ولم نستطع أن نشرح شيئا لمشرف القسم الداخلى • ولكن ماذا حدث لمشاريعك الأخرى ؟

قال السـكرتير بهمس مسـموع وهو يشـير للأوراق هـل ••• ؟

فقال له : نعم ، نعم ••

ثم أملاه سطرين ، وأشـار لى السكرتير أن أوقـع وهو يبتسم فى وجهى ثم جمع أوراقه وخرج •

قال لى حين خرج السكرتير ــ احك لى • ماذا حدث لك ؟ •• كنت تفكر أن تعمل طباخا على مركب وتهاجر للبرازيل أليس كذلك ؟

قلت : أنا الآن منتسب لكلية التجارة ••

رحنا نتكلم ساعة ، وقبل أن أخرج سألته عن التحقيق فقال بلا اهتمام :

ـ حكاية تافهة . أنا فى حياتى لم أحقق فى قضية تافهة كهذه . عندى اختلاسـات وبلاوى كبيرة ، ولكن مصلحتكم تهتم بمكارم الاخلاق .

بدأ واضحا أنه لا يرغب فى الحديث عن ذلك ، فصافحته وخرجت .

حين عدت الى المكتب سألونى عن سبب بقائى طول هذا الوقت .

حكيت لهم ، وقلت لسمير ضاحكا ، اننى أوصيته ليرأف به . لكن سمير وقف فجأة خلف مكتبه وقال وهو يلوح فى وجهى .

ـ أنا لا تهمنى وصاياك ! وقل لصديقك هذا أيضا انى لا تهمنى اتهاماته . اذهب وقل له اننى أنا وحدى الذى أعاكس بنات المدرسـة .

قلت بدهشة : ماذا جرى ؟ وما ذنبى أنا ؟

فقال : ألم تقل ان هذا المجنون صديقك ؟ ! اذهب وقل له سمير حسن عبد السلام هو وحده الذى يعاكس ويصاحب ويمشى مع كل البنـات ، ويقفز من النافذة الى المدرسـة كل يوم أيضـا .

تدخل باقى الموظفين لتهدئة سمير ، وجاء الشاى وأحاطوا بمكتبه ، وتردد اسـمى عدة مرات ، وانهمكت أنا فى فحص أوراق لا أفهم ما فيهـا ، وأخيرا قام سـمير وتقدم نحوى ، والبعض يدفعه فى ظهره •

قال : حقك على •• أعصابى تالفة •

فقلت : لا تهتم ، أنا أقدر •

قال وهو يضحك فى حيرة : بعد كل تلك الأسئلة لو كان قد سألك !

ـ ولكنه سألنى •

ـ لا ، لم يسألك عما تفعله حين تقف فى النافذة ولا عن الطريقة التى تقضى بها أوقات فراغك ، ولا عما اذا كنت متدينا • وكيل نيابة هو أم أمام ؟ أراهن أن له خمس عشيقات • والطريقة التى يسأل بها أيضا ! انفجرت فيه أخيرا وقلت له اذا كان يريد أن يقول انى أعاكس البنات فليقل ذلك • وكتب هـذا بالفعل • كنت مستعدا أن أقول له اننى أقتل البنات بشرط أن يتوقف أسئلته •

قلت ببساطة : هذا عمله • وحين نظر الى سمير مندهشا أكملت بسرعة : ولكن أسئلته غريبة • سألنى أنا أيضا بعض الأسـئلة ••

قال سامح : عن أى شىء ؟

فقلت بارتباك : نفس الأشـياء تقريبا •• مـاذا أفعل فى النافذة •• من يقف فى النافذة •• أين أعيش ••

قال سامح : وبماذا أجبت ؟

قلت : لم أجب بشىء • قلت له اننى لا أعرف شيئا عن الموضوع كله ، ولم يطل التحقيق فى الواقـع ، •• استغرقت الذكريات معظم الوقت ••

سأل سامح بالحاح : وهل أوصيته على سمير بالفعل ؟ • كانوا جميعا يتطلعون الى باهتمام فقلت بسرعة : نعم ، نعم ، أوصيته •

فقال سمير : أشكرك • أنا آسف مرة أخرى •

ثم عاد الى مكتبه وعدت الى أوراقى وأنا لا أجسر على التطلع اليه لفترة •

فى اليوم التالى كنا قد نسينا ، وبدأنا أيضا نلوح للبنات من أماكننا على المكاتب ، وفى اليوم الثالث تجرأ سامح ووقف يتفاهم مع صاحبته بالاشارات وتبعه باقى الموظفين ـ ثم عادت الأمور كما كانت من قبل مع احتياط : كان على الساعى الواقف

بالباب أن يخطرنا بظهور أى شخص غريب فى الممر • ولكن حدث بعد أسبوع ما لم نكن نتوقعه •

دخل مديرنا المكتب عدة مرات وخرج صامتا ومشغولا ، ففهمنا من ذلك أنه يريد أن يقول شيئا ، وأوفدنا سمير ليعرف •

عاد سمير بعد لحظات شاحب الوجه ، وجلس على مكتبه وبيده ورقة مطبوعة صفراء ، وضعها على المكتب وتقدمنا جميعا متوجسين أزاح الورقة نحونا ويده ترتعش وقرأنا وسط كلام كثير « يعاقب بالانذار لاعترافه وما أثبته التحقيق من سلوكه المعيب فى العمل » • ساد الصمت والوجوم ثم انفجر أحـد الموظفين : هذا عبث ! تظلم لمجلس الدولة •

وقال سامح : ولا يهمك ، احمد ربنا • الانذار لا يوقف الترقيـة •

ولكن سمير نظر له غاضبا وبدا على وشك أن يشتمه فتدخل الأستاذ كمال بسرعة وأفتى بأن التظلم يكون للوزير أولا • وكثرت الفتاوى ، ولكن سمير قطعها بصوت عـال ومرتعش وقال وهو يطوى الورقة •

ـ أنا سأعرف ما أفعله • لن أسكت على هذه الفضيحة فى ملف خدمتى •

وبينما كنا نتفرق من حوله قال سامح وهو يشير لى ويضحك ..

ــ كله من صديقك ومن وصاياك !

اتجهت الانظار نحوى وأردت أن أعترف بأننى لم أوصه ، لم أكن أملك أن أفعل ذلك فى الحقيقة ولكننى التزمت الصمت وعدت الى مكتبى .

كان ذلك اليوم صامتا ، وتلته أيام كئيبة . راح سمير يتكلم بالتليفون معظم الوقت ويجرى استشارات هامة مع زوار غرباء لمكتبه ، ولم يدقق مديرنا كثيرا فى مواعيد حضوره وانصرافه ، ولكن سامح قال انه لو كان مديرنا قوى الشخصية لما أمكن أن يحدث لسمير ما حدث . وتوقفت المعاكسات أثناء وجود سمير فى المكتب .

وبعد ثلاثة أيام حدث ذلك الشىء . دخل سمير المكتب مبتسما لأول مرة منذ الانذار ، وحين جلس على مكتبه سألته عن الأخبار .

فنظر الى طويلا ، ثم قال وهو يفتح صحيفته .

ــ الحمد لله .

لكننى قلت له بلهجة عادية وبصوت عال ..

ـ هل هناك أخبار جديدة ؟

قذف الجريدة على مكتبه بعنف وقال : ما هى الأخبـار الجديدة ان شاء الله ؟ هل تريد أن أفصل نهائيا لكى تستريح ؟

قلت : أنا مخطىء حقـا لأنى اهتم بالسـؤال عنـك • حقك على •

فقال وهو يضحك ضحكة غريبة متقطعة : ما شاء الله ! أنت الذى ستغضب الآن ؟

ما معنى هـذه التمثيلية ؟ هل تعتقد أنى حمـار لأنى لا أتكلم ؟ •

ـ وما معنى هذا ؟ أنا لا أفهم أى شيء •

ـ ولكن أنا أفهم • هـذه الطبخة كلها طبختهـا أنت وصديقك • ما معنى هذه العبارة من فضلك قل لى « بناء على اعترافه وما أثبته التحقيق » ما الذى أثبته التحقيق ؟ لم يتكلم أحد من الموظفين هنا عن شيء ، أنت وحدك الذى طال التحقيق معه • أنت وحدك صديق وكيل النيابة • وأنت وحدك الذى ستستفيد من تعطيل ترقيتى لو •• (لو حدث وتعطلت) • وأنا أبشرك بانها لن تتعطل •

ثم ضحك من جديد وقال ـ أنت وحدك الذى أوصيته عـلى •

قلت وأنا أقف وأدق على مكتبى . هـذا اتهـام حقير ولا أسمح لك به ..

فقال : أنا آسف يا صاحب وكيل النيابة . أنا لم أرد أن أكلمك أصلا ولكن أنت الذى بدأت . تنحنح سامح ، وقال : يا جماعة .. حصـل خير .. كنتم دائما أحسن أصدقاء .

همهم باقى الموظفين بكلمـات غير مسموعة . فقال سمير مخاطبا سامح وهو يعود لجريدته .

ـ معك حق . وهذا يثبت أنى مغفل كبير . ولكن الدور عليكم . الجاسوس دائما جاسوس .

هجمت على مكتبـه ولكن الجميـع وثبوا وأمسكو بى وأعادونى الى مكتبى وأنا أصرخ بكلام لا أعرفه . حين هدأت عادوا الى أماكنهم وانهمكوا فى أوراقهم ، وتحاشى الجميع أن تلتقى أبصارهم بى .

انقطعت المعاكسات نهائيـا فى المكتب بعد ذلك اليوم ، وبدأ سامح يعاملنى بأدب مبالغ فيه ، وقـال لى حسـان انه لا يصـدق اتهام سمير لى ، ولكنه يرجونى أن أقـدر حالته النفسية ، واستدعانى مديرنا الى مكتبه ، وقال لى ان معظم الأشياء تبدأ صغيرة ثم تكبر ، وانه لا فرق بين الاتهام الظالم والاتهام الحقيقى ، وأننى ان لم أصالح سمير فسـوف أخسر

أشياء أكثر من سمير • خرجت من عند المدير مسرعا دون أن أرد عليه ، ثم وقفت وسط مكتبنا أحاول أن أسيطر على الرعشة فى صوتى وقلت ان أى كلب لديه اتهام لى فليثبته وليواجهنى بصراحة ، وعندما تطلع الى الجميع فى صمت ودهشة خجلت من نفسى وتوجهت الى مكتبى بخطوات مسرعة • وبعد لحظة قال سامح مخاطبا الأستاذ كمال ومركزا نظره عليه :

ـ اذا كان الانسان يكره العمل فى مكان فما عليه الا أن يتركه •

فقال الأستاذ كمال بحماس ووجهه محتقن •• هذا رأيى أيضا ••

قلت لسامح بصوت عال اننى أفهم أساليبه السافلة وان رأيى فيه بصراحة أنه كلب • فقال بهدوء انه لن يرد على ، وانه لا يعتب على أيضا لأنه يفهم أمثالى ويرثى لى • فضحك سمير ضحكة وهو يرفع رأسه من الجريدة وقال ان هناك نكتة لطيفة فى الجريدة ، حكاها ، وضحك باقى الموظفين •

عند الظهر فى ذلك اليوم طلبنى وكيل النيابة فى التليفون ، لم أكن قد رأيته أو سمعته منذ التحقيق فدهشت ، ولكننى كنت حريصا على ألا أذكر اسمه وأنا أكلمه فى التليفون أمام الموظفين • قال لى انه يريدنى لأمر هام ـ ورجانى أن أذهب

فورا الى مكتبه وألا أذكر ذلك لأحد • عندما توجهت الى مكتبه طلب منى السكرتير أن أنتظر قليلا • قال لى ان هناك بعض الزوار لدى السيد وكيل النيابة ، وهو يريد أن يقابلنى على انفراد • كان السكرتير مهذبا كعادته لكنه كان متجهما ـ جلست فى مكتبه الصغير لفترة وبعد لحظة جاء الساعى وطلب منى أن أتفضل •

حين دخلت عند وكيل النيابة وجدته يقف وسط المكتب وهو يشبك ذراعيه على صدره • ابتسم ابتسامة غريبة عندما رآنى ، ولما لاحظ يدى الممدودة صافحنى بارتباك وقال لى وهو يشير الى كرسى •

ـ تفضل •• تفضل ••

لكنه ظل واقفا وعاد يشبك ذراعيه على صدره فبقيت واقفا أنا أيضا ، ورحت اتطلع اليه منتظرا أن يتكلم •

قال لى بلهجة عادية وهو يبتعد عنى ويمشى فى الغرفة ـ أنا آسف ان كنت قد أزعجتك ، ولكننى أريد أن أسألك سؤالا صغيرا • هل حكيت لأحد أننا كنا زملاء فى الدراسة ؟ •

ـ نعم فى يوم التحقيق ، قلت هذا لباقى الموظفين •

ـ ولكن لماذا ؟

ـ ولماذا لا ؟

ضحك وهو يقف أمام مكتبه ويعبث ببعض الأوراق دون هدف • ثم قال : معك حق ، أنا لم أطلب منك ألا تقول ، ولكننى لم أتصور أن زملاءك بهذه التفاهة • يظل الانسان يتعلم دائما •

ـ ولكن ماذا تقصد بالضبط •

قال دون مبالاة وهو يواصل العبث بأوراقه : هل أنت الذى تعاكس البنات فى المدرسة ؟

قلت وأنا أبلع ريقى : لا ••

فقال بسرعة : عظيم • اذن فتمسك بهذه الاجابة •

ـ ولكننى قلت ذلك من قبل • قلت لك •

فقال وهو يعود للتجول فى المكتب : ربما تضطر أن تقوله لغيرى •• هناك شىء سخيف •• شكوى تافهة وصلت لرئيس النيابة بأنك أنت الشخص الحقيقى الذى يعاكس البنات وأننى أدنت زميلك ظلما لأنك صديقى • شكوى تافهة بطبيعة الحال ولا قيمة لها ، ولكن لابد أن يحقق فيها •

ـ يحقق فيها معك ؟

قال بسرعة وهو يعود لمواجهتى : لا •• لا •• كيف ذلك ؟ معك أنت بطبيعة الحــال •

ثم وضع يده على كتفى وقال : كل ما أرجوه منك أن تتمسك بالحقيقة • قل ما ذكرته لى ، انك لم تعاكس ولا تعرف من يعاكس • لا تغير أقوالك التى أدليت بها أمامى •

ــ هــذا طبيعى •

قال وهو يضحك : لاحظ أن مرسل الشكوى مجهول ، ولكننا أنا وأنت تعلم بالطبع من الذى أرسلها •• ربما يستدعى زملاؤك للتحقيق أيضا فهل تتوقع أن يشهدوا فى صفك ؟

كان ينظــر فى عينى مبــاشرة فقلت بصــوت ضعيف : لا أظن ••

رفع يده من على كتفى وقال بشىء من الغضب : لمــاذا ؟ أليس لك أصدقاء ؟

ــ لا ••

ــ ولكن كيف ؟ لا يهم • لا يهم • قالوا فى التحقيق الأول انهم لا يعرفون من يعاكس ، ولن يفيد أن يغيروا أقوالهم الآن • المهم أن تتمسك أنت بأقوالك •

ــ ولو سألونى ان كنت صديقى ؟

ابتعد عني من جديد وقال : الحقيقة • قل اننا كنا زملاء فى المدرسة • ولكن لا داعى للتفاصيل هه ؟ • لا تحك لهم عن رحلة السودان أو عن ••

ثم توقف فجأة ولوح بيده نافذ الصبر وقال ــ قل ما تشاء •• لن يضرنى أى شىء تقوله أكثر من الضرر الذى حدث بالفعل ••

قلت خجلا من نفسى : أنا آسف ••

قال هو بلهجته العادية من جديد : لا •• لا ، وما ذنبك ؟•• أرجوك فقط ألا تحكى عن هـذه المقابلة أيضا •• أنت تفهم •• حياد وكيل النيابة ، هو كل شىء بالنسبة له ــ ولم يحدث فى عشر سنوات عملت فيها ان قدمت شكوى تمس حيدتى ــ اختلاسات ومصائب •• والآن من وراء تحقيق تافه ••

انصرف عنى ومشى حتى وقف عند النافذة وظل ينظر عبر زجاجها المغلق فترة طويلة ، لم أجد فى ذهنى شيئا أقوله ، ولكننى صرخت :

ــ أتريد أن تعرف الحقيقة ؟ اذن اسمع • سأقول ما هى الحقيقة • كل الموظفين ، كلهم يعاكسون البنات • كلنا • والبنات يعاكسن الموظفين • كل واحد له صاحبة • البعض لهم أكثر

من صاحبة . يخرج الواحد مع اثنتين أو ثلاث ويذهبون الى الكازينوهات .. أحيانا الى البيوت ، وبعض البنات لسن ..

ـ اهدأ .. أرجوك .. ما أهمية ذلك ؟ . اياك أن تقول شيئا عن هذا أتسمعنى ؟ نحن لن نصلح الكون .

ـ نعم . عن اذنك . اتسمح لى ؟

ـ ليس قبل أن تعد بأنك .. بانك سـوف تتمسـك بأقوالك الصحيحة .. أرجوك ألا تزيد الموقف سوءا ..

ـ كما تشاء .

ـ هل هذا وعد ؟

ـ نعم ، وعد .. نعم . أرجوك أن تسمح لى .

***

فى المكتب ابتسم المدير ابتسامة حزينة ..

نظر خلفـه عبر النافذة المفتوحة وكانت تطل على فنـاء المدرسة الترابى الأجرد .. تطل على ملعب خال مخطط بالطباشير تقسمه شبكة .

ظل يمسك الورقة بيده وهو ينظر عبر النافذة صامتا ..

قلت ، وخرج صوتى خشنا : أرجوك أن توقع الورقة .

أريد أن انتهى من هـذا الموضـوع اليوم • سوف انهى كل الاجراءات بنفسى •

ــ لا تتعجل •

ــ أشكر لك النصيحة • أرجوك • بسرعة •

ــ أنا لا أنصحك • لا أعرف أن أنصح نفسى • أولا أنا لا أملك أن أوافق على استقالتك •

ــ ولكن لمـاذا ؟ •• لا •• لا تلق على خطبـة • وقع ولينته الأمر •

أدار بصره نحوى فجأة ، وقال بصوت مرتفع :

ــ ولمـاذا ألقى عليك خطبة ؟ لم تتصـور آنك •• ؟ لم تتصور أننى •• ؟ • حتى أنت ! حتى أنت ! •• وبعد ان وقعت معى فى نفس المصيدة ! تريد أن تسمرنى فى الصورة التى •• ألم تتعلم بعد ؟

اختنق صوته ، ووضع يده على وجهه • فى نفس الوقت ضرب جرس المدرسـة • رأيت من مكانى أبواب الفصـول تفتح ــ والبنات يندفعن من الفصول بثياب زرقاء داكنة ــ وراح صياحهن الرفيع يرتفع بالتدريج • قلت بصوت خافت : ما الذى يجب أن أتعلم ؟ أرجوك آن تقول لى •

رفع يده من على وجهه وقال بصوت جاف وهو ينظر لى دون أى تعبير فى عينيه ــ لا أستطيع أن أوافق على استقالتك • لا أملك ذلك • اليوم ، الآن ، صدر قرار بنقلى من الادارة •

ثم ضحك ضحكة قصيرة وقال ــ لم يوضحوا حتى مكان النقل • قــال المدير العام ان كل شىء سيتضح بعد أن تنتهى التحقيقات • أتعرف متى تنتهى ؟

ــ ما الذى يجب أن أتعلمه ؟ ••

سكت ، وكانت الصيحات الرفيعة تعلو وتختلط الى أن صارت صرخة واحدة متقطعة تتكرر باستمرار •



فنجـان قهـوة

انتهى بسرعة الغداء المكون من شوربة عدس خفيفة وبصل فى الخل • وأخذ الأبن الأكبر « سمير » الطالب بالجامعة يضرب الطبق بالملعقة بصوت رتيب • وانشغل مدحت الابن الأوسط بتكوين كرة صغيرة من فتافيت الخبز ، وراحت ليلى التى بقيت فى البيت بعد الاعدادية تداعب شعر « ماجد » الصغير ــ ولكن ماجد طلب طبقا آخر من العدس • قالت الأم لليلى أن تحضر طبق العدس وحذرتهـا أن تسرف فى الغرف • وعندما جاءت ليلى نصحت الأم لماجد ومنى تقبله أن يأكل « نونو •• نو » •

قال سمير وهو يضرب طبقه بالملعقة للمرة الأخيرة ان هذا لا يمكن أن يستمر فقالت الأم انها قابلت « سـعيد أفندى » بخصوص المعاش فوعد باستعجاله ، وعلى العموم فمعها كارت من محسن بيه •

سأل سمير :

ـ وعمى حامد ؟

فأوضحت الأم انه معذور هذه الأيام وقد اقترض ليغطى مصاريف جنازة المرحـــوم • صرخت ليلى فجـــأة « يا حبيبى يا بابا » ، ورمت رأسها على ذراعها فوق المائدة وراحت تبكى • تمتمت الأم بصـــوت لا يسمع « كفى •• كفى » ـــ ولكن أحدا لم يقل شيئا فأصبح بكاء ليلى محرجا وسط الصمت ، وانتهى بسرعة ، بينما راح ظهرهـــا يرتجف فى ثوبها الأســـود الجديد وهى تنهنه بصوت خافت •

دق جرس البـــاب واتضح أنه العم حامـــد • كان يلبس الجلباب البلدى ومعطفا صوفيا ويتكلم برزانة حتى لا يكتشف أحد أنه شرب زجاجتى بيرة • دخل غرفة الجلوس حيث كانت صورة كبيرة للمرحوم حولها شريط أسود جلست تحتها الأم وعلى حجرها ماجد وبجوارها ليلى وبقيـــة الأولاد ، وجلس الحاج حامد قبالتهم واضعا يده على فمه حتى لا ينتشر النفس والكحول ثم أشعل سيجارة • قال العم حامد ان سبب تأخيره أنه كان فى دمياط ، وأنه يفكر فى ترك تجارة الأخشاب ، وان صحته لم تعد تحتمل السفر الكثير ، وانهم لا يجب أن يحزنوا كثيرا لأن من يموت يستريح بينما الحى وحده هو الشقى • وضرب مثلا : ها هو أمامهم مثلا •• من عشرين سنة وهو فى

سفر من مصر الى دمياط ومن دمياط الى مصر فماذا أخذ من الدنيا ؟ •• لم يأخذ شيئا من الدنيا بل ركبته الهموم والديون •

ثم لوى ذراعيه ووضع يديه على كتفيه ليصـــور كيف ركبته الهموم •

تنهدت الأم :

ــ ربنا يعطيك القوة •

فتنهد العم حامد أيضا :

ــ الحمد لله •• الحمد لله على كل حال •

سألت الأم :

ــ وكيف حال أم شوقى وسى شوقى ؟

فقال العم حامد :

ــ والله أم شوقى مريضة وراقدة والا لأتت كل يوم •• ولكن يعلم الله انها تبكى ليلا ونهارا وتكاد تقتل نفسها حزنا على المرحوم •

قالت الأم انها تعرف أن أم شوقى أخت وحبيبة ، ودعت الله ألا يسىء اليها فى الحاج أو فى شوقى أو الأولاد • ثم التفتت الأم لليلى وقالت لها أن تعد قهوة لعمها حامد •

خرجت ليلى من غرفة الجلوس ثم نادت مدحت بصـوت خافت • وفى الصالة طلبت منه أن يجىء بين وسكر من البقال على الحساب • ورفض مدحت وقال انه ليس خادما لأحـد ، ولكن ليلى أقنعته فى النهاية •

ـ ماذا تريد أن يقول عم حامد ؟ بعد أن مات المرحوم لم تعد عندهم حتى القهوة ؟

احتقن وجه مدحت ، وصفق الباب وراءه بشـدة وهو يخـرج •

ذهبت ليلى الى المطبخ وأشعلت (الوابور) • أطلت من باب المطبخ فلم تر أحدا ففتحت نافذة المطبخ الصغيرة وعادت تقف أمام الوابور وقد راح يوشـوش حتى ملأت وشوشـته المطبخ الخالى • كان هـذا الصـوت يحزنها دائمـا ولم تدر لمـاذا • ووقفت تحدق فى اللهب الأزرق والرغبـة فى البكاء تنتابها من جديد وفكرت : (ما فائدة البكاء على أى حال ؟ •• لا يفيد البكاء فى شىء • فى العزاء كانت النسـوة يحطن بى بطرحهن السوداء ويقلن « ابكى •• ابكى يا ليلى •• خففى عن نفسك •• ستجنين لو بقيت ساكتة هكذا » وكنت أريد أن أبـكى لأتخلص من الحـاحهن وليتركننى لنفسى ولكننى لم أستطع • وعندما استطعت أن ابكى لم أشـعر انى أحسن • لا فائدة • لا فائدة من شىء • المرة الوحيدة التى بكيت فيها فى

العزاء أتت عندما فكرت فى أحمد • شعرت ساعتها أنى خائنة ومجرمة • لا فائدة • الكل ينسى • حتى أنا أنسى • نعم ، أنا أيضا خائنة • فى قلب العزاء وبينما كنت أفكر فيك يا أبى فكرت فى أحمد • ساعتهـــا صرخت « يا حبيبى •• يا بابا يا حبيبى يا بابا » •• نعم •• نعم •• كان حبيبى عندما رآنى أبكى مرة أخذنى الى غرفته وقال لى « لمـــاذا تبكى حبيبتى ؟ » وعندما سكت ضحك وهمس فى أذنى « بسبب شوقى ؟ » قال أنا أعرف انك لا تحبينه وأن أمك تشاجرت معك بسببه • بالأمس شكت لى أمك من انك تقطبين فى وجهه وقالت لى أن أكلمك لتعقلى • قلت « لا أحبه يا بابا » فقال « ولا أنا •• لن تتزوجى شوقى ما دمت لا تحبينه ، وقطبى فى وجهه كما تريدين • لا تفعلى شيئا لا تحبينه » ثم قبلنى وضحك • قـــال « ولا تدعى أمك تعرف انى قلت لك هــذا » لم يتركنى الا بعد أن ضحكت • كان يحبنى ، وبرغم كل شىء فها أنا أنسى أيضا • لا فائدة • ولكن يا ربى •• لمـــاذا أنسى ؟ •• ولمـــاذا أفكر فى أحمد وأنا لا أريد أن أفكر فيه ؟ •• لمـــاذا أريد أن أراه ؟ •• لمـــاذا أشعر بدونه انى ناقصـــة ؟ •• نعم •• عندما مات أبى نقصت مرتين •• نقصت عندما مات ونقصت عندما لم أعد أرى أحمد • وأنا أعلم أن هــذا عيب •• انه حرام •• ولكننى لا أستطيع شيئا •• سامحنى •• سامحنى يا ربى •• سامحنى يا أبى •

كانت تتمتم دون صوت « سامحنى •• سامحنى » ••
عندما سمعت النداء الخافت « ليلى ••• ليلى » فاندفعت نحو النافذة وقد أخذ قلبها فجأة يدق بسرعة • أطلت فى كل النوافذ المجاورة وعندما لم تجد أحدا قالت لأحمد فى النافذة المقابلة :

ــ ماذا ••• ماذا تريد ؟

ــ ليلى ، لابد أن اراك •

ــ أنت ترانى الآن •

ــ ولكن من يومين لم اركِ • لن ينفع هـذا • لا أرفع عينى عن نافذة المطبخ •

ــ أنت تعرف ••• تعرف الظروف •

ــ نعم ، ولكن ما معنى الحب اذا لم نشترك فى كل شىء، فى الحزن والفرح ؟

ــ وماذا سنعمل ؟

ــ قابلينى الليلة وسنفكر ماذا نعمل •

ــ مستحيل ، قلت لك لن تتقابل قبل الأربعين •

***

قال الحاج زكى البقال لمدحت وهو يعطيه لفافة صغيرة من البن والسـكر :

ـ أريدك فى كلمتين يا مدحت يا ابنى .

ثم انتحى به فى ركن من المحل ، بعيدا عن زحام الزبائن ، أمام أرفف اللحم المحفوظ فى علب عليها صورة رأس بقرة .

***

فى غرفة الجلوس شعر العم حامد بخجل من نفســه لأنه عرف أن كثرة التدخين لا تقضى على رائحة البيرة وتوهم انه يرى الاشمئزاز فى عين سمير فعاد يضع يده على فمه متظاهرا بالتفكير العميق . وقال بعد صمت طويل وتنهد انه بحث مع سعيد أفندى كل شىء فانتهيا الى أن المعاش وحده لن يكفى .

قالت الأم انها لا تعرف كم يكون المعاش ، وانها الى أن مات المرحــوم لم تكن تعــرف كم المرتب ، اذ لم يكن البيت ينقصه شىء وكان كل ما تطلبه تجده .

أشعل عم حامد سيجارة جديدة وقال :

ـ هذا هو السبب فى أننى أريد أن أكلمك أنت وسمير أفندى . لقد كان المرتب قليلا فى الحقيقة ، ولكنه رحمه الله كان يعمل جهده لتعيشوا أحسن عيشة .. وأنا لا أدرى .. أعنى أننى أدرى أن المعاش لن يكفى لسداد أجرة البيت ولهذا تكلمت مع سعيد أفندى . ليس غريبا .. سعيد أفندى زميل المرحوم فى المكتب وكان صديقه الروح بالروح .. ولهذا تكلمنا بصراحة .

* * *

قال مدحت وهو يشــعر بأذنيه تلتهبان بينما يحــاول أن يثبت نظره على رأس البقرة المقطوع حتى لا يبكى :

ـ يا حاج زكى آل •• آل •• المعاش •• بمجرد صرف المعاش سندفع الحساب ، ولكن •

قال الحاج زكى وهو يشيح بوجهه عن مدحت ويمســح عرقه بكم جلبابه :

ـ يا مدحت يا ابنى أنا لست قليل أصل •• وأنتم خيركم على ولا يمكن أن أنسى جميل المرحــوم • من عينى يا ابنى اتكلم فى هــذه الظروف ولكن الله •• والله ما معى شىء •• حساب الزبائن فى أول كل شهر أدفعه لحساب البضاعة فى أول كل شهر • بدون هــذا لا يمشى الحال • أنظر هذه الفواتير هذه الكمبيالات ••

* * *

قال سمير لعم حامد :

ـ وزارة الأوقاف ؟ اعانة ؟ هذه شحاذة •• كيف تفكر فى هذا يا عم حامد ؟

ـ يا سمير يا ابنى ليست هذه شحاذة • هــذا حقك ؟ هذا حقكم • دعنا نتكلم بالكلام •• أعنى دعنا نشحذ بالفعل•• أعنى دعنا نتكلم بالعقل •• أتريد أن يجوع أخوتك الصغار ؟

وليلى ألا تلزمها مدرسة ؟ .. أعنى ألا يلزمها جهاز ؟ .. لقد أصبحت ليلى عروسة ..

نزل العرق البارد من جبين عم حامد وأخذ يحرك يديه فى عصبية وهو يفكر .. لا فائدة . لا فائدة لقد انكشف . عرفوا أنه سكران وسوف يحتقرونه .. لكنه قال وهو يضغط على كلماته ويجيل بينهما عينين واسعتين مهتمتين :

ــ ليلى أصبحت عروسة .

ثم تراجع للوراء محاولا أن يستعيد نفسه ، ولكن سمير قال فى اصرار :

ــ هذه شحاذة ..

لوح عم حامد بيديه فى يأس وهو ينظر للأم . بدأت الأم تبكى وهى تقول :

ــ اسكت .. اسكت يا سمير يا ابنى ..

وبدأ ماجد الصغير أيضا يبكى مع أمه فراحت الأم تهزه على رجلها دون وعى ولكن سمير قال :

ــ لا ، هذه شحاذة . اذا كان المعاش ضئيلا فيمكن ، أن أشتغل ..

قال العم حامد دون أن يشعر ــ تكلمت فى هــذا أيضا مع سعيد أفندى • بدأ صفير غريب فى اذن سمير ولم يعد يسمع الكلام ، بل أخذ يعبث بكم جاكتة البيجاما وهو يحنى رأســه كان يفكر بان حياته ســوف تنتهى •• تكلم العم حــامد مع سعيد أفندى ورتبا كل شىء •• سيشتغل فى وظيفــة صــغيرة ولن يصبح معيدا فى الجامعة كما كان يحلم • وتذكر فجــأة منظر الموظف السمين الأشيب الذى رآه لأول مرة يجلس أمامه فى خيمة الامتحانات بالكليــة • ساعتها التفت هو الى منيرة وتبادلا الابتسام وهمست منيرة « لابد أنه يمتحن بالنيابة عن ابنه » وعندما تذكر سمير ذلك شعر بالحزن والخجل ثم كره عم حامد ، وســعيد أفندى ، وأخوته لأنهم أنهوا حيــاته • أما منيرة فلن ••••

***

قال أحمد لليلى :

ــ كونى معقولة •• بعد الأربعين ســتكون امتحانــات الكلية ولن أستطيع أن أراك •

قالت ليلى :

ــ اذن بعد الامتحانات •

ـ كيف ؟ .. هذا وقت طويل . لا أستطيع أن أنتظر كل هذا الوقت . ألا تفهمين ؟ أريد أن أراك .

ـ أنت لا تفكر فى أبدا .

ـ ولكن ما معنى هذا ؟

ـ أنت تريد أن تتفسح ولا يهمك شعورى .

ـ أنا .. أنا لا أريد أن أتفسح . أريد أن أراك .

ـ اذهب الآن . جرس الباب يدق .

ـ اسمعى . سأنتظرك الليلة . الساعة ٧ نفس المكان .

ـ مستحيل .

ـ وبينما كانت تغلق نافذة المطبخ بسرعة كان يقول بصوت أعلى :

ـ « سأنتظرك .. سأنتظرك » .

***

عندما فتحت ليلى الباب قذف مدحت لفافة البن والسكر على المائدة .

فقالت له « مالك » ؟

صرخ ـ لا شأن لك بى . غورى .. اعملى القهوة .

دخل مدحت غرفته وأغلق الباب ونام واضعا الوسادة فوق

رأسه حتى يتظاهر بالنوم لو دخل أحد . لم يكن يريد أن يكلم أحداً ... « كلهم كلاب » .. يجلسون فى البيت مرتاحين ويبعثون بى الى البقال والجزار لأموت من الخجل . لماذا لا ينزل سمير مرة ؟ أم أنه (بيه) لأنه فى الجامعة ؟ أنا لم أعد صغيرا أيضا .. ألست رجلا ؟ ولماذا يتأخر المعاش ؟ وكم سيكون على أى حال ؟ كان سمير يقول ان المعاش قليل لن يكفى لشىء . وما دام المعاش قليلا فلابد أن المرتب كان قليلا . اذ كيف كان أبى يدبر أن نعيش هذه المعيشة بمرتب قليل ؟ آه لن أنس ما قاله هذا الكلب فى سرادق العزاء . الكلب . فى سرادق العزاء ويقول ... ولكن لا .. لا لن أفكر فى هذا .. « فى المدرسة ، فى المدرسه ينظر الى الأولاد بعطف .كم أكره هذا .. منير كان يخاصمنى فصالحنى بعد أن مات أبى . كأنه يعطينى حسنة . الكلب .. سأخاصمه فى أقرب وقت . لا أريد حسنة من أحد . وعمى حامد يبدأ بالشكوى حتى لا يطلب أحد منه شيئا « أريد أن أترك التجارة » أم شوقى مريضة .. ماذا أخذت من الدنيا » .. لماذا يقول هذا الكلام ؟ ومن طلب منه شيئا ؟ أمى تريد أن تزوج ليلى لشوقى وعمى حامد يتظاهر أنه لا يفهم .. لو كنت أستطيع أن أقول لها كى تكف عن هذا .. ولكن ألم يكن يستطيع أن يأتى الى البيت دون أن يسكر ؟ .. لم يمض شهر على وفاة المرحوم وها هو يأتى الى البيت وهو سكران .. كان يسكر مع المرحوم أيضا ..

لا ، لن أفكر فى هـذا .. لن أفكر .. سوف أقرأ الفاتحـة خمسين مرة حتى أنام بسم الله الرحمن الرحيم .. الحمد لله .. أبى كان يصلى أيضا ، سوف يغفر الله له أنه كان يسكر ولكن هل يغفر الله له أنه كان يسرق ؟ ماذا ؟ ما الذى يجعلنى أفكر فى هـذا ؟ سامحنى يا أبى .. سامحنى .. سامحنى .. ولـكن لا أستطيع أن أنسى . لا أستطيع أن أنسى هـذا الكلب الأصلع فى سرادق العزاء . لم يكن يظن أننى أسمع ولكنى سمعت .. يضع يده على فمه ويهمس لجاره النحيل « المرحوم يعنى كانت يده طويلة حبتين ولكن ربنا غفور رحيم » والنحيل الكلب يضع يده على فمه هو الآخر ويهز رأسه وكأنه متأثر . كلاب . كانوا يكرهون أبى ، هـذا كل ما فى الأمر ... « بسم الله الرحمن الرحيم .. الحمد لله رب العالمين .. الرحمن الرحيم .. مالك يوم الدين .. اياك » ... كان المرتب قليلا وكنا نعيش مرتاحين فكيف ؟ لم تكن نملك أرضا .. لم يكن عندنا شىء .. ربما كان أبى يقوم بعمل آخر . أى عمل ؟ .. لم يكن هناك عمل آخر . ولكن سامحنى يا أبى لم أقصد .. كان أبى يصلى .. لا ، لن أبقى هـكذا . الشيطان . الشيطان يضـع فى رأسى هـذه الأفـكار .

قام مدحت فجأة والدموع فى عينيه . مسحها بسرعة ودخل الى غرفة الجلوس وجلس بجوار سمير وكان عم حامد يقول :

ــ الزواج سترة .

وكانت أمه تقول :

ــ نعم بالطبع • أنت الآن والدها ، لا أحد يقول شيئا ولكن •• هل هــذا وقت التفكير فى الزواج ؟

ــ يا ست أم سمير هــل نحن تكلمنا الآن عن الفرح ؟ هل أنا لا سمح الله لا أعرف الأصول ؟ •• ولكن هــذا كلام بيننا لا يسمعه غريب • والكلام يجر الكلام • نحن نفكر فى المصلحة ماذا نريد غير المصلحة ؟ •• ومن يدرى ؟ •• ربما كان هذا عوضا من عند الله • والرجل ليس متعجلا ــ يمكن أن ينتظر شهرا •• شهرين •• ثلاثة •• سنة حتى لو أحببتم •

وعندما قــال العبارة الأخيرة لوح بيده وعيناه المحمرتان مفتوحتان على آخرهما ليصــور استعداد الرجل للتضحية • وأنصت مدحت بانتباه ليفهم والتفت الى سمير ولكن سمير كان يهز رجله فى عصبية ويبدو شاردا وعندما طال الصمت قــال العم حــامد :

ــ وأنا الذى ظننت أن هذا الخبر سيريحكم •

فقال سمير بعد أن تنحنح :

ــ يا عم حامد •• أنت تشكر بالطبع ، ولكن الحقيقة ••

ــ ما الحقيقة ؟

ــ الحقيقة أنه فى سن والدها ••

فقال العم حامد :

ـ من ؟ سعيد أفندى ؟

صرخ مدحت :

ـ سعيد أفندى ...

فقال سـمير :

ـ أسكت أنت ..

ومضى العم حامد دون أن ينتبه لمقاطعة مدحت .

ـ سعيد أفندى أصغر منى بعشر سنوات على الأقل . يمين بالله خمس عشرة سنة على الأقل ، وليلى ..

صرخ مدحت :

ـ لا تقسم .. سـعيد أفندى عنده خمسون سنة على الأقـل .

كانت أمه تقول : « أسكت يا مدحت » وسـمير يقول « اخرس يا ولد » .

ولكن مدحت راح يصرخ :

ـ خمسون سـنة وتريد أن تزوجه لليلى ؟ هـذا بيع وليس زواجا .

قال العم حامد :

ــ الله يسامحك ..

فقال مدحت وهو يبكى :

ــ ولا تتكلم عن الله أيضـــا .. أنت لا تعرف الله .. أنت لا يهمك شيء . أنت .. أنت أتيت الى البيت وأنت سكران وتريد أن تزوج ليلى من سعيد أفندى لأنك .. لأنك تريد أن تتخلص منا و ...

وانتهى الصراخ بأن قام سمير وصفع مدحت على وجهه فاندفع مدحت خارج الغرفـــة وهو يبكى ويصرخ : « لمـــاذا تخافون منه ؟ .. لمـــاذا ؟ .. كلاب .. كلكم .. كلكم » وأراد سمير أن يخرج وراءه ويضربه من جديد ولكن العم حامد قام وهو يبتسم ابتسامه واسعة وأمسك سمير من يده وقال له :

ــ أقعد .. أقعد يا سمير يا ابنى لا تغضب . صغير . مدحت كابنى « علاء » تماما . هـــل أغضب من عـــلاء ؟ .. الانسان لا يغضب من ابنه الصغير ..

فجلس سمير وهو يقول :

ــ حقك على يا عم حامد .

فقال العم :

ـ لا شيء •• لا شيء •• فلنعد للكلام المفيد •

وعاد العم حامد يتكلم من جديد • كان هجوم مدحت قد حرره من الحرص والذنب فراح يتكلم بسرعة وحماس عن الحياة والموت ، عن المعاش وسعيد أفندى •• ولكنه سكت عندما دخلت ليلى غرفة الجلوس • كانت تتقدم بثوبها الأسود فى بطء وحرص حتى لا تنسكب القهوة وقد ثبتت نظرتها على وردة كبيرة حمراء مرسومة فى الصينية التى تحملها ، ولكنها رفعت رأسها عندما قال ماجد : « ليلى » •

التفتت وهى تبتسم وكانت أمه تحيط وسطه بذراعيها المتشحتين بالسواد ولكنه ضرب يديه الصغيرتين فى الهواء وقال :

ـ ليلى • سمير ضرب مدحت • وعمى حامد قال مدحت ابنى • مدحت وعلاء أولاد عمى حامد ••



نصيحة من شاب عاقل

جرى العجوز خلفه وهو يعبر شارع « طلعت حرب » عند سينما راديو وناداه بصوت مرتفع « يا أستاذ عادل ! » • سمع صرير سيارة جاهد سائقها ليوقفها فجأة ثم راح يلعن الرجل العجوز الذى لم يهتم به وأدرك صاحبه قبل أن يصل الرصيف وأمسك ذراعه بأصابع رفيعة متشبثة ، تبادلا النظر دون كلام لفترة ثم نحى عادل يده عن ذراعه وسأله عما يريد •

قال العجوز ـ أنا يا أستاذ عادل • أنا • ألا تذكرنى ؟ •• كنت تشترى منى الأهرام كل صباح والكواكب كل أسبوع • كنت أقف فى ركن شارعكم • خليل •• عمك خليل •

قال عادل ـ وأنت ألا تذكر ؟ تقابلنا هنا كثيرا • تقابلنا من أسبوع واحد ونصحتك ، ألا تذكر ؟ يظهر أنه لا فائدة •

بدأ يمشى بخطوات بطيئة ــ وعم خليل يتابعه • يتخلف عنه خطوة باستمرار ليمس ذراعه وهو يتكلم • قال بسرعة ــ آه يا سعادة البيه ، تذكرت ، تذكرت • ولكن أنت لا تعرف • أنا الحمــد لله تغيرت • أرجوك أن تســتمع الى • أنا تغيرت خالص • والله العظيم والله العظيم لم أعد أعرف الأفيون أبدا • لم أعد أعرف شكله ولا طعمه • داهية تحرقه •

وقف عــادل مرة ثانيــة فواجهــه العجوز النحيل بعينين تغطيهما غشــاوة • كانت عيناه أيضــا تفرزان دموعا صــغيرة لا يلاحظها وكان يمسح شفتيه بلسانه باستمرار •

قال عادل ــ حكيت لى هذا المرة التى فاتت • قلت لك امتنعت عنه وتريد عملا • لمــاذا لم تعمــل ؟ نكس عم خليل رأسه فى الأرض فبدت رأسه بشعرها الأشيب ضئيلة بين كتفى الجاكتة الرمادية الواسعة اللامعين بسواد القذارة ثم رفع رأسه على الفور وقال ــ كيف صحة الحاج ؟ والد حضرتك ؟

ضحك عادل ضحكة صغيرة وقال ــ بخير •

ثم عاد يمشى من جديد فتابعه عم خليل وهو يقول :

ــ ناس أمــراء •

وبعد صمت طويل قال بصــوت ضعيف ــ تعرف الحقيقة يا سعادة البيه ؟ أنا الآن تحت العلاج . أصل الكيف خرب صدرى الله يحرق الأفيون ويومه . أصل سعادتك لا تعرف . هل تذكر عمك خليل أيام زمان ؟ والله يا بيه ما كنت أعرف غير شغلى وبيتى . فنجان القهوة كنت أبخل به على نفسى وأقول البيت أولى بالقرش . الحكاية ناس ضحكوا على ناس . قالوا لى الأفيون يشفى من الروماتيزم فعلقت فيه وخرب بيتى . كمان هم البيت والعيال . خمسة أولاد وأمهم والقرش ضنين . حمل ثقيل على عمك خليل .. يعنى يا بيه بنى آدم لمــا الهم يزيد عليه .. لكن الحمد لله هذا كان زمان . زمان وانتهى . الحمد لله ربنا نجانى وسأرجع للعمل بعد أن أعالج صــدرى . أرجوك لو سمحت أن تساعدنى ــ وسأردها لك عندما .. عندما ..

توقف فجأة ثم بدأ يسعل سعالا شديدا ويده على فمــه ، وأبطأ عادل سيره وهو يدير رأسه قليلا نحو العجوز الواقف يرتجف بسعاله حتى كاد يختفى عن بصره فى الزحــام . لكن الرجل أسرع يلحق به قبل أن يبتعد وقال بصوت لاهث تقطعه سعلات قصيرة :

ــ لا .. لا أستطيع أن أعمل قبل أن أعالج صدرى .. يعنى مساعدة .. مساعدة بسيطة .. لو سمحت .. وسأردها لك .

قال عادل بهدوء دون أن يلتفت اليه ـ أنت تكذب يا عم خليل • أنت لا تريد أن تعالج صدرك ولا غيره وانما تريد أن تشترى الهباب • كم مرة نصحتك ، وفى المرة التى فاتت أعطيتك بريزة أليس كذلك ؟ ماذا فعلت بها ؟ صرفتها على الكيف أليس كذلك ؟

قال عم خليل محتجا ـ بريزة ؟ والله يا بيه البريزة لا تشترى أى ••• وأنا قلت لك الكيف كان زمان والله • الآن لا يمكن • سعادتك تعال معى ان أردت أن •••

وقف الشاب فى الطريق وقال بلهجة حاسمة نافذة الصبر ـ اسمع • عندى كلمة واحدة • يجب أن تعالج نفسك • ادخل مصلحة لبعالجوك • ان أردت واسطة فلى صديق طبيب وهو يستطيع •••

مد العجوز يده فأمسك بذراع عادل مرة أخرى وقال بسرعة :

ـ هيا بنا • الآن • رجلى على رجلك • الله يعمر بيتك • هيا بنا الآن الى صاحبك الدكتور •••

أخذ عادل يتطلع فى حيرة الى الرجل العجوز المرتجف الذى يمسك بذراعه وهو يفكر فى شيء يقوله ولكن عم خليل بادره قبل أن يتكلم ـ ولكن يا بيه يعنى قبل أن نذهب للدكتور

أرى أولادى أولا • يجب أن أرى أولادى وأدبر أمورهم • مساكين يا بيه • من أين يأكلون لو دخلت المصحة ؟ يعنى سؤال • يعنى لا مؤاخذة أمهم تسرح وتبيع روحها ؟ يرضيك يا بيه ؟ يرضيك ؟ •• أنا •• أنا أصلى لم أقل لك • أنا فى الحقيقة دخلت مصحة • يعنى عالجت نفسى وشفيت والحمد لله •

المسألة الآن صدرى والكحة • أريد أن أذهب للدكتور ليرى صدرى أقصد يعنى بالأشعة • أرجوك أن تساعدنى يا بيه • حق الدكتور فقط •

كان يقفان أمام سينما ميامى فى نقطة مزدحمة من الشارع والناس يدفعانهما قليلا ليعبروا الزحام • ووجد عادل نفسه أمام صور الفيلم المعروض فاكتشف انه يتطلع من مدة الى صورة البطلة الجميلة وهى تستلقى على سرير محلولة الشعر وثوبها ينحسر عن فخذيها المرفوعين وانه لا يكاد يسمع شيئا مما يقوله عم خليل • وعندما تذكره نحى ذراعه وقال •

— هى كلمة واحدة • لا تحاول •

وحين عاد السير قال العجوز وهو يضحك ضحكات قصيرة ويهز رأسه كمن اكتشف سرا • أنا أفهم يا بيه • أنت قلبك على عمك خليل ، ولكن كما قلت لك ، أنا وجدت عملا والحمد لله •

سأفتح كشك جرائد وأعود كما كنت • سأعود أحسن مما كنت باذن الله (ثم أضاف بصوت خفيض) المسألة الآن باختصار والأمر لله انه لا توجد لقمة فى البيت • ساعدنى لو سمحت • يكفينى حق الأكل للأولاد •

قال عادل بعصبية — أنت يهمك أولادك أنت ؟ •• أنت لا يهمك الا الزفت الأفيون •

قال العجوز — حتى الأفيونجى بنى آدم يا سعادة البيه • أنا أيضا أحب أولادى •

قال عادل — أبدا •• لايمكن • الانسان الذى يترك شغله وبيته من أجل الـ •• كم مرة قلت لك ؟ •• أنظر الى • أنا مهندس • أعمل بالنهار وبالليل • فى الحكومة وفى شركة • أهلك نفسى من أجل أن أجمع القرش • لماذا ؟ •• هل اشتريت سيارة مثلا لأريح نفسى من المواصلات على الأقل ؟ أبدا • كل مليم أكسبه أدخره لأحمى مستقبل ابنى • صحيح أنه ما زال فى الحضانة ولكن لابد أن يعمل الانسان حساب المستقبل يا عم خليل • ومن يدرى ربما يأتى غيره • لابد أن يطمئن الانسان للمستقبل ثم يلتفت بعد ذلك لنفسه • لماذا لا تتعظ يا عم خليل ؟ أنظر الى الناس من حولك • أنظر الى أنا نفسى •

كان العجوز يستمع اليه ويهز رأسه مؤمنا على كلامه ولكن عينيه الزائغتين تكشفان أنه لا يتابع الحديث • وعندما انتهى المهندس قال له ـ تمام يا أفندم الحمدلله • كما قلت لك ربنا شفانى (ثم ضحك ضحكة صغيرة مفاجئة) كنت صغيرا هكذا وكنت تأتى لتشترى الجرنال لبابا • عمى خليل ! الأهرام ! أتذكر ؟ •• ثم وقف مرة أخرى وأمسك يد المهندس وقال :

ـ ارحمنى يا بيه •• أبوس ايدك •

خلص المهندس يده بسرعة وقال ـ هـذا الكلام شبعنا منه • ثم بدأ يمشى بسرعة والعجوز يعدو وراءه تقريبا وهو يقول : ـ أى مساعدة يا بيه • أى شىء •

ـ ارجع لأولادك وأعقل •

ـ سـوف أعقل يا بيه • سأفعل كل ما تقوله والله • سيادتك تريد أن أضـع الأولاد فى الحضـانة أليس كذلك ؟ سأفعل •• سأفعل • ولكن تلزمنى مساعدة ، ولكن •••

مد العجوز يده من جديد وأمسك ذراع المهندس وأوقفه بالقوة تقريبا ، وقرب وجهه منه • كانت عينـاه الآن تدمعان باستمرار وعضـلات وجهه تختلج اختلاجات سريعة ثم قـال بهمس :

ـ اسمع . لا داعى لأن نضحك على بعض . لا تخجل من عمك خليل . أنت رجـل جدع وأنا أحب أن أخدمك . اسمع ولا تقل شيئا . بينى وبينك يعنى أنا أعرف امرأة جميلة كالورد . هس . لا تتكلم . تمتع بشبابك وملعون أبو الدنيا ، كالورد والله . مسافة السكة وتكون عندك . لا تقل شيئا . عمك خليل يريد أن يخدمك . قـال المهنـدس ـ أنت جننت يا رجـل ؟

فقال العجوز ـ اسمع . أنا أعرفك . من يومك وأنت ابن حظ . رأيتك مرات كثيرة مع بنات ولم أتكلم . أنظر .. عمك خليل لا يفتح فمه أبدا . هس .

وضع العجوز أصبعه على فمه ثم مسح عينيه بظهر يده فبقى خده الضامر مبتلا وأخذ يضحك ضحكات صغيرة متقطعة وهو يتكلم بسرعة وهمس :

ـ أنا لا افتح فمى ولكننى أحب الجدعان . لا أريد منك شـيئا أبدا . حق التاكسى ومسافـة السـكة تكون عندك . أنت لم تقل لعمك خليل كلمـة واحـدة حلوة ولكن لا يهم . ماذا يهم ؟ أنت يعنى مثل ابنى .. يعنى أنا لا أعمل هـذا من

أجل مخلوق ، ولكن ان أردت أن تساعد عمك خليل ، أو يعنى أنظر • حق التاكسى فقط • اسمع • ان كنت لا تصدق فخذ بطاقتى حتى أعود •

بدأ يفتش بيده المرتعشة فى جيب الجاكتة الداخلى ، وبدأت دموع جديدة تتسرب من عينيه فقال له المهندس .

ــ أنت وصلت لهذه الدرجة ؟ أنت الموت أحسن لك •

ثم تركه ومشى بسرعة وهو يكاد يعدو تقريبا • وبقى العجوز الذى نجح فى اخراج بطاقته واقفا مكانه وهو يلوح له بالبطاقة ويقول :

ــ تعال يا بيه • أنت لم تفهمنى • أنت لم تفهم •

وحين رآه يعبر الشارع مرة أخرى اندفع يجرى وراءه ــ وحين صرخت الفرامل وصدمه الشيء الثقيل فى الطريق سقط العجوز على الأرض ، لكنه نهض بجذعه كله مرة واحدة دون أن يرفع ساقيه وقال « آه » قبل أن يسقط من جديد مفرود الذراعين وتنفلت البطاقة بجانبه على الأرض •

كان ذلك بعد الغروب • فى الضوء الأخير قبل ان يهبط الظلام • خرج سائق السيارة مذعورا يتطلع للرجل الأشيب

المفتوح العينين وتجمعت دائرة داكنة من المـارة حول السيارة البيضاء ، قال أحدهم « رأيته يكلم رجلا منذ قليل » ، وقـال آخر « نعم » ، شاب ، ورأيته يعبر الطريق • ولكنهم عندما فتشوا عن هذا الشاب بأعينهم لم يجدوه •

كان هو أيضـا قد شاهد الحـادث واندفع ليعود ويرى ما جرى • لكنه ترقف فجأة وقال لنفسه (سيأخذوننى شاهدا ويعطلوننى بلا فائدة • وأنا تأخرت بالفعل عن موعد الشركة) ثم دخل مسرعا فى الممر الذى صادفه • وبعد ان ابتعد توقف مرة ثانية وقرر أن يعود لكن قال لنفسه (ان كان قد جرح فسوف يعالجونه وربما يحصل على تعويض • وان كان قد مات فلا فائدة • ربما يحصل أولاده على تعويض ينفعهم) • كان قلبه يدق بسرعة ، لكنه مشى بسرعة ولم يرجع •

وهناك انحنى أحدهم والتقط بطاقة الرجل العجوز • أخذ يقلبها وقرأ اسمه واسماء أولاده قبل أن يعطيها للشرطى الذى كان يستمع صامتا للسائق وهو يشرح مشيرا بيديه الى صدره وملوحا للرجل الميت دون أن ينظر اليه •

فهـــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٨٦٠٣ / ١٩٩٩

I.S.B.N 977 - 01 - 6152 - 7





المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود ولاموعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل - للشاب. للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك

36

